القسمُ الثالث

التّعَرُّفُ على عبقريّةِ العربيّةِ الفُصحى

من خلالِ الاشتقاقِ وتوليدِ المعانى

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[النحل: ١٠٣]

ملاحظة: عربى، فى الآية، تعنى: (فصيح) – كما سنعرف فى القسم الرابع).

obeikandi.com

الموضوع الأول

مثالٌ: الفِعلُ «فَرَجَ»[1]

– نبحث فى هذه المقالة الفعل «فَرَجَ» ومشتقاتِهِ من الأفعال والأسماء والصِّفات.. لنُدلِّلَ بذلك على أن هناك ثلاثة أشياء ذات أهميّة بالغة هى:

الأوّل – أن اللّغة العربيّة لغة العقلاء، ولذلك فهى تقوم على اشتقاق معقول لا اعتباطىٍّ، لانّ كُلَّ المُشتقات من الأصل اللغوى الواحد يكون لها كُلِّها معنىً «مركزىٌّ» واحد، ثم تحمل كلُّ صيغة معنىً جديدا، إضافةً إلى المعنى المركزىِّ.

الثانـــى – أنَّ هناك صِيَغا وردت فى المعاجم لا يســهل قَبولها – من حيث الاشــتقاقُ – للوهلــة الأولى. ولكن عند النظر المدقّق والبحث عن الســبب الذى جعلها تأتى على هذه الصورة.. يُمكِّنُ من قبولها، ولكن، من باب الاســتعمال الاســتثنائى الذى أدى إليه معنىً مخصوص ولّدَهُ ظرفٌ مخصوص. وستتضح أمثلةُ ذلك خلال هذه المقالة.

الثالث – أنَّ الأديب أو اللغويَّ يُمكنُ أن يأتى باشتقاقات لم تَرِدْ فى المعاجم للتعبير عن المعانى الجديدة. بل يمكننا أن نُولّد اشــتقاقات «استثنائيةً» لم يَعتَدْ أهلُ اللّغة استعمالها، ولم ترد فى القديم، تأتى تعبيرا عن حالة خاصة ولّدتها الظروف. كأن نأتى باســم الفاعل من فعل – لا إرادى – لا يأتى منه اسم فاعل فى المعتاد وإليك التفاصيل:

– فَرَجَ: هذا هو الجذر اللغوىُّ، وهو فعل ثلاثىٌّ.

ومعناه: انكشف واتسع. ففَرَج الشىءَ: كشفه.

وفُرِجَ الشيءُ: اتّسع وانكشف.

والفَرْجُ: الخَلَلُ بين الشــيئين، أىْ: هو منطقةٌ مكشــوفة بينهما. والفَرْجُ: هو عورةُ الرجل والمرأة. وسُمِّىَ فَرْجُ المرأةِ هكذا: لأنه ينكشــف عنه الوركان، ولأنه ينفرج ما بينَ شُــفْرَيْهِ أىْ: يتّسع عند الجماع أو الولادة. أما الرجل فقد أُطلق على عورته الفَرْجُ لسببين:

الأول: أنه ينتشر فينكشف أو يكاد أو يكونُ واضحا وبارزا فى موضوعه فكأنه مكشوف.

والثانــى: أنّ الوَرِكيْنِ ينفرجان عنه وله أىْ: ينكشــفان. والفَــرْجُ: الثَّغْرُ المخُوفُ لأنهُ

(١) كتبت سنة – ٢٠٠١م.

منكشف للعدوّ لقربِهِ منه. والفَرْجُ: سِوارُ الرجل والمرأةِ. لأنّ فيه فراغا، والفراغُ نوع من الانكشاف والاتّساع.

وفُروج الأرض: نواحيها المتّسعة المكشوفة. ومفردها: فَرْج.

والفُرْجَةُ: الخَصاصة بين الشيئين، كما يقول معجم لسان العرب. والخصاصةُ: الاتّساع والانكشاف.

والتّفاريج: الفُتُحاتُ التى بين الأصابع، وما بين الأصابع منطقة مكشوفة. ويقول ابن الأعرابيّ: مفرد التفاريج.. تِفْراجُ. وأنا أرى أنَّ هذا الجمع من الجموع التي لا مفردَ لها، مِثْلُ: تقاطيع الوجه.. فليس لها مفرد، سواءٌ أقلنا: تِقْطاع أو تقطيعة، ومثل: تقاسيم.. فليس لها مفرد، سواءٌ أقلنا: تِقْسام أو تقسيمة. والإتيانُ بمفردٍ لكلٍّ من هذه الجموع أو مثلها.. إنما هو «صناعةٌ» لُغَوِيَّةٌ.. لم يتكلم بها العربُ. ولا بأس فى استعمال المصنوع إذا اقتضاه معنى جديد.

والفَرْجَةُ -بالفتح-.. بالأمر. والفُرجة (بالضم).. فى الجدار والباب. أيْ-هو الاتّساع والانْكشاف فى كُلٍّ منهما. ولكن من دِقّة اللّغة العربيّة أنها تستعمل - غالبا - صيغةً لكُلِّ معنىً، وإنْ تقارَبَ المعنيان. فالانكشاف فى الأمر أو المشكلة معنويٌّ وليس ماديا. ولهذا.. جاءت الفاء مفتوحةً. أمّا الانكشاف فى الجدار والباب إنما هو مادّيٌّ، ولذلك ضُمَّ أوّلُهُ ليختلفَ مبناهُ عن مبنى المعنويِّ. وهذا.. نوعٌ من الاشتقاق بالحركات. كما أننا نُفرِّقُ فى المعنى باستعمال الاشتقاق بالحروف. ولذلك.. نجمع عينا على عيون، عندما نريدُ العيونَ المبصرةَ أو عيونَ الماء. فى حين نجمعها على أعيانٍ، عندما نريدُ التعبير عن عِلْيَةِ القوم. ومن المطّرد فى اللغة أن الماديّ يُضمُّ أوّلُهُ - وأن المعنوى يُفتح أوّلُهُ.

وَمِثْلُ: الفَرْجةِ والفُرْجةِ: غَرْفَةٌ وغُرْفةٌ. فالغَرْفة هى أنْ تغْرِفَ بيدك أو بإناء من الماء مرّةً واحدةً.. أمّا كميّةُ الماء المغروفة مرّةً واحدةً.. فهى: غُرْفَةٌ. قال تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ « [البقرة: ٢٤٩].

ومِثْلُ غُرْفةِ الماءِ.. الغُرْفةُ التى هى جزءٌ من بناء تُتَّخَذُ مسكنا أو مكتبا. لأن هذه وهذه شيئان «ماديّان». وجمع الغُرفة: غُرَفٌ وغُرُفاتٌ، كما ورد فى القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٧].

– وبالمناسبة: لماذا جاء فى الآية الأولى «غُرفا» وفى الآية الثانية «الغُرُفاتِ»؟

مفهومُ أنّ الجمعين لفرد واحد هما اشتقاقان لهذا المفرد، ولا يجوز أن نُستعمل فيما نكتبُ إلاّ أحَدَ الاشتقاقين، إلاّ إذا اختلف المعنى. عندئذٍ من الدِّقةِ أنْ نأتيَ بكلٍّ جمع فى موطنه. وهكذا كان فى القرآن – الكتاب المعجز – فقد اسْتُعْمِلَتْ «غُرَفا» وهى جمع تكثير مع المؤمنين الذين يعملون الصالحات. واسْتُعْمِلَتِ «الغُرُفات» وهى جمع يَدُلّ على القليل مع المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع أنهم أصحاب أموالٍ وأولادٍ. والأموالُ والأولادُ، غالبا ما تصرفان عن بعض العبادة والعمل الصالح. أما قال الله تعالى: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» أمَا اعتبر الحقُّ تعالى أنّ كثرة المال لرجلٍ وكثرة الولد.. إنما هما نعمتان يجب على الإنسان أنْ يعبد ربه كِفاءَ ما قَدَّمَهُ له منهما، فإذا لم يفْعلْ غَضِبَ عليه وتهدَّدَهُ وتوَعَّدِهُ؟ قال تعالى فى هذا السياق: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المدثر: ١١ – ١٣]. ولكنه لم يؤمن، فَوَجَّهَ اللهُ تعالى له هذا التهديد الشديد.

ولذلك.. فالذين يؤمنون ويعكفون على عمل الصالحات من أصحاب الثروات والعدد الكبير من الأبناء.. أقلةٌ. لأن الثرواتِ والأبناءَ تدفع كثيرا منهم إلى أن تأخذهم العِزّةُ بالإثم. ولذلك.. جاء التعبير بالإيمان والعمل الصالح من باب الاستثناء. وبعد أن سبق أن الأموال والأولاد لا تقرّب المرءَ من الله تعالى.

وعلى ذلك فالمؤمنون منهم أقلة.. فالكثرة المؤمنة استعمل معهم جمع الكثرة، والقلةُ المؤمنة استعمل معهم جمعُ القِلّة.

– ومما يُمَثَّلُ به على أنّ جمع المؤنث السالم، غالبا ما يَدُلُّ على القِلّة، قولُ حسّان بن ثابت – رضى الله عنه – يفتخر بكرم قومه:

«لنا الجَفِناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحى» فقال: «الجفنات» ولم يقُل: «الجِفانُ». ولذلك انتقده النابغة الذبيانيُّ فى سوق عُكاظٍ الذي[1] كانت تُضرَب له فيه خيمةٌ من أَدَمٍ أىْ: من جلدٍ..

(١) (سوق) – مؤنث مجازى. والمؤنث المجازى الذى لا تظهر فيه علامة تأنيث يمكن استعماله مذكرًا، وتأنيثه.. أقرب إلى العادة والاصطلاح، ولذا.. يمكن تذكيره. وقد دعوت إلى التساهل فى استعمال المؤنث= المجازى، والمذكر المجازى، فى كتابى (الرؤى النحوية)–٢/٢٠٩–٢١١.

ليحكم بين الشعراء – انتقدهُ باستعماله الجفنات وليس الجفان، لأنَّ الجفنات تَدُلُّ على القليل. ولذلك.. عندما أراد الحقُّ تعالى أنْ يُبيّنَ فضلهُ على سليمانَ – عليه السلام – بأمْرِهِ الجنَّ بأنْ يُطيعوهُ قال: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣] فاستعمل جمع التكسير «جفانٍ»[1] للدلالة على الكثرة ولم يستعمل: الجفناتِ، جمعَ المؤنث السالم، لدلالتها على القلة.

– والفَرْجَةُ: الراحة من حُزنٍ أو مرضٍ، والراحةُ منهما إنما هو انكشاف لهما أيْ: زوال. وهو انكشافٌ معنويٌّ لا ماديٌّ. وجمع الفَرجة: فُرُجاتٌ وفُرُجٌ. وأرى أنه يمكن أنْ يضاف: فُرَجٌ بضم الفاء، وفَتح الرَّاء. لأنه يمكننا أنْ نُضيف من المشتقَّات ما تدعو إليه الحاجة. بل إن كثرة الجموع التى تأتى من مفرد واحد تُسَهِّلُ الاستعمال، فسواءٌ ضَمَمْتَ أو فتحتَ – مثلا – فالكلام صحيح. وهذا ناتج عن أنَّ العربيّة مُستقراةٌ من سبْع لهجات، بينها اختلاف فى «قليل» من اللفظ.

– والفَرِجُ: ورجُلٌ فَرِجٌ: لا تزال تتكشف عورته. وذلك فى الحال التى يحدث فيها ذلك بغير قصد منه، وإنما هى عادة. وأرى أننا نستطيع أن نقول: رجل فارِجٌ: إذا كان «يقصد» كشف عورته. وفَرِجٌ على وزن فَعِلٍ إنما هو صفة مشبّهة سَدَّتْ مسدَّ اسم الفاعل، لأن الأفعال «اللاإراديّة» لا يأتى منها اسم فاعل غالبا، لأن من يتّصف بها ليس فاعلا لها وإنما هو مُتَلَقٍّ لها. فإذا قصدَ أن يقوم بها، إراديا، جازَ أن يأتى منها اسم فاعل لأنه، فى هذه الحال، يكون فاعلا لها، وإن كان هذا يقع من باب الاستثناء. ومن هذا الباب نستطيع أنْ نقول: رجلٌ مَفْروجٌ (أىْ: اسم مفعول) إذا كشف آخرُ عن فَرْجه، رغما عنه. وإنْ لم يقعْ هذا الاشتقاق فى الماضى. لأن المعنى يستدعى اللفظ، أو بعبارة أخرى: لأن المعنى ولفظه ينبثقان إلى الوجود معا دائما، فقد يكون موجودا، وقد لا يكون، فيقوم الأدباء واللغويّون باشتقاقه. لأن اللّغة التى لا تستجيب لتطوّرات الحياة والمعانى المتجدّدة بتجدُّد الظروف والأحوال.. تنتهى إلى الانزواء أو الاضمحلال أو الانقراض. واللّغة العربيّة من اللُّغات المتدفقة بالحيوية التى تستطيع أن تستجيب للجديد، عن طريق خمس طرق وأكثر، وهذه الطرق هى:

١ – الاشتقاق.. بأنواعه المختلفة: الكُبّار، والأكبر، والكبير، والصغير.

(١) هذا لا يعنى أن جمع التكسير يدلّ على الكثرة دائما، بل هناك أربعة جموع تكسير تدلّ على القلة.. غالبا، وهى على وزن «أَفْعُلٍ، أَفْعِلَةٍ، أفعالٍ، فِعْلة».

٢ – تطـور الدلالـة – مع احتفـاظ الكلمة بمعناها الأول – أحيانا – ونسـيانه – أحيانا أخرى– وقد يكون للكلمة – عشْـر – معان. المهم أن يكون بين معانيها – اشـتراك – فى المعنى الأصلى.

٣ – التضميـن: كأن تتضمن كلمة معنى كلمة أخرى. كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ – (النساء – ٢) فكلمة (ولاتأكلوا) تضمنت معنى (ولا تجمعوا).

٤ – التعريـب، مثـل قولـه تعالـى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ – (الإسـراء – ٣٥)– فالقسطاس – مُعَرَّبَةٌ.

٥ – الدخيل: مثل كلمة (الأسبرو)– لدواء.

– والأَفْـرَجُ: العظيـمُ الأَلْيَتَـيْنِ، لا تكادان تلتقيان. ويقول لسـان العـرب: «وهذا فى الحبـش» ولأنهما لا تلتقيان فهما تكشـفان ما بينهما. والفعل: فَـرِجَ يَفْرَجُ فَرَجا. ولا أرى مانعا من ضَمّ الرّاء، لأن الضمّ يدل على الاتصاف الثابت.

ومن معانى الفَرَج كذلك الفَرَجُ بَعْدَ الشّـدّة: وهو انكشاف الهمّ والغمّ. ولذلك فهو اتّساع معنويٌّ أو انكشافٌ معنويٌّ، وليس بمادىٍّ، لأن الإنسان يحسُّ فى مثل هذه الحالة بطلاقةٍ وانشراح.

– والفُرُجُ الفِرْجُ: الذى لا يكتم السـرَّ أيْ: الذى يكشـف السِّـرَّ. وهو انكشافٌ معنويٌّ كذلك.

والكلمتان: الفُـرُجُ والفِرْجُ.. لغتان لمعنى واحد أيْ: أنَّهما لهجتان عربيَّتان جاهليّتان، كلُّ لهجـةٍ لقبيلـةٍ مختلفةٍ عن الأخرى. ومن المعروف أنّ اللّغة العربيّة لم تُجمع من لهجة واحدة وإنما جمعت من سـبْع لهجات، فى مُقدِّمتهـا لهجة قريش فى مكة المكرمة. وهذا يعنى أنّ لبعض المعانى لفظين؛ كلّ لفظٍ لقبيلة. وفى ذلك تيسير على المُتحدث أو الكاتب، فإذا قال – مثلا – يكفُل – بضمِّ الفاء – فهو مصيب، وإذا قال: يكْفَل – بفتح الفاء– فهو مصيب كذلك. ولكن اللهجات متماثلة فى خمسٍ وتسـعين بالمئة من الألفاظ. فالاختلاف بينها قليل جدًا.

–وقـوسٌ فُرُجٌ وفارجٌ وفريجٌ: منتفخة السِّـيَتَينِ (أى: منتفخة الطرفين) والانفراج يعنى الانفجاج ويعنى الانكشـاف والاتّساع بين الشيئين. أما فُرُجٌ وفَريجٌ.. فهما صفتان مشبَّهتان

(أى: صفتان ثابتتان)[1].. تشيران إلى أن المُتكلِّم بهما يرى أن الانفراج يأتى بين طرفى القوس من عوامل خارجية، لأن القوس.. جماد ليس لها[2] يَدانِ فيما يحدث له. أما من قال: فارِجٌ.. فقد شخّص القوس، لأنه اندمج بها شعوريا، فبثَّ فيها الحياة. ولذلك.. تصور أنها هى التى تقوم «بإرادتها» بالانفراج. وتشخيص الجوامد يجرى على ألسنة الشعراء. أما قال ذو الرّمة، شاعرُ الحُبِّ والصحراء فى القرن الأول الهجرى:

وعينانِ قال اللهُ: كونا، فكانتا فعولانِ بالألبابِ ما تفعلُ الخَمْرُ؟

هو بذلك يبثّ الحياة فى العينين، ويشخّصُهما، ويتعامل معهما وكأنهما شخص عاقل: يُؤْمَرُ فيطيع. ذلك أنه أسبغ على هاتين العينين.. مشاعرهُ وأحاسيسه وعاطفتهُ.

-بل أما قال أبناءُ يعقوب - عليه السلام - لأبيهم: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يوسف: ٨٠ - ٨١]. فلأنهم كانوا «صادقين» حَسُبَ ما ظهر لهم فى واقعة السرقة فقد انعكست عواطفهم وأحاسيسهم الصادقة على القرية فحدث اندماج بينهم وبينها، بحيث خُيِّلَ إليهم أنها عاقلة، تُسأل فتُجيب، وأنها قادرة على الشهادة لهم أمام أبيهم، لقد أَنْسَنُوا القرية[3].

- بل إن الاندماج بين الشعراء وبين الجوامد، وبين أبناء يعقوب وبين القرية.. مِمّا خَيَّلَ إليهم أنّ هذه الجوامد ذات عقل.. أصبح حقيقة لسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد كان يخطُبُ فى بدءِ بناء المسجد النبويّ على جِذْعِ شجرةٍ. وبعد حين بنى الصحابة - رضوان الله عليهم - مِنبرا للرسول الكريم ليخطبَ من عليه. وفى أوّل مرةٍ

---

(١) انظر: (الرؤى النحوية - ٣/ ١٤٩ - ١٦٦).

(٢) القوس.. تُذكّرُ وتُؤنّثُ، فالوجهان جائزان.

(٣) ولا تلتفت إلى المفسرين الذين يقولون: «واسأل القرية» تعنى: «واسأل أهل القرية».. فهذا تجاهل لحقيقة نفسية شعورية. وهى أنه إذا امتلأت النفس والمشاعر بالانفعال بدت لها الجمادات أو النباتات «عاقلة» وكأنها أفراد من الناس. أما قالت أخت ابن طريف عاتبة على شجر الخابور الذى لم يسقط وَرَقَهُ حدادا على ابن طريف:

فيا شجرَ الخابورِ مالكَ مُورقا كأنكَ لم تجزعْ على ابنِ طريفِ؟

اعتلاه الرسول الكريم ليخطُب.. أخذ الجذع «يَحِنُّ» كحنين النِّيب (أى: النوق)، ولم يكُفَّ عن الحنين حتى نزل الرسول الكريم عن المنبر، وربَّت عليه وطيّب خاطرهُ.. فصمت. الله تعالى بثَّ الحياةَ فى هذا الجذع اليابس ليحنَّ حنين النّيب حُزنا على فِراق الرسول – صلى الله عليه وسلم – له. إنه اندماج حقيقى وليس اندماجا مُتخيّلا بسبب صدق العواطف وَجَيَشانها. وقانونَ بثّ الحياة فى الجوامد من قوانين الكون. وما بَثُّ الحياةِ فى طين آدم – عليه السلام – إلا من هذا القبيل.

–نخلص من هذا، فى مجال اللّغة، إلى أن الألفاظ ذات المعانى اللاإرادية.. يمكن أن تُعطى معنىً إراديا، إذا تمثّل المتكلم فيها المعنى الإداريُّ أو تخيّلَهُ المتكلم، لأنه اندمج فى مادة الكلمة المعنوية أو الجامدة. ولهذا.. فمادة «فَرِحَ» مثلا – مادة لا إرادية، ولذلك لا نقول بشكل عامٍّ، رجل فارح، وإنما نقول: رجل فَرِحٌ أو فَرْحانُ. لأن مصدر الفرح خارجيٌّ، فهو لا يفرح إذا أراد أو يغضب إذا أراد. ولكن على النادر نجد رجلا متفائلا جدا بحيثُ يفرح لأقل المفرحات أو يتكلف الفرح حتى يشعر به، بحيث يمكننا أن تقول: كلما رأيتُ هذا الرجل وجدته.. فارحا. أى: استعملنا معه اسم الفاعل. ونقول: محمود كان فى حفلة الطرب مفروحا (فنستعمل معه اسم المفعول) لأن قوة الطرب التى أحاطت به وهزّت أعماقه، فاستجاب لها وهو كالمجبر..، وَلّدت فى ملامح وجهه فرحا. وهذا.. وَضْعٌ نادر جدا. ولكنه ليس مستحيلا، لأن الألفاظ تبعٌ للمعانى.

– فَرْجَةٌ: هزيمة. ومثالها.. قولهم: «أذكروا القومَ على فرحتهم» أى: على هزيمتهم. وسُميت الهزيمة: فَرْجةً.. لأن المنهزمين ينفرج بعضهم عن بعض، إذ لا يبقى تنظيم يشدهم. وبذلك تكون الأرض بينهم «مكشوفة» لِتباعُدِ المسافة بين كل واحدٍ وآخر. وبذلك.. فهم خلافُ المنتصرين الذين يتقدّمون أو يرجعون بتنظيم. ومن تكتيك الحرب فى القديم أن يتراصَّ المحاربون، ولا يكون بينهم تخلخل: أما قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤] أىْ لا خَلَلَ ولا فُرَجَ بين صفوفهم. لأن ذلك أثْبَتُ للمحارب بالسيف

أو الرمح وأخلعُ لقلوب الأعداء. لأن رؤيته لزميله المقاتل ملاصقا له يحمله على التقدم وعدم الفِرار. ولأن رؤية الأعداء لأعدائهم صفوفا متراصةً.. يضعف من عزيمتهم على اقتحامهم واختراق صفوفهم.

ومن فَرْجَةٍ.. فالفريج أيْ: الظاهر المنكشف الذى أدّت الهزيمة إلى اتساع المسافة بينه وبين زملائه. وعلى هذا الفريج فى المعركة هو المهزوم.. مثل قتيل أى: مقتول. ويقال: امرأة فريج: للّتى أعْيَتْ من الولادة. وهى فريج، وليست «فارجا» مثلا، لأنّ الانفراج الذى حَدَثَ بين وركيها إنما كان رغما عنها، لما تُسبّبه لها الولادة العِسرةُ من آلام مُبَرِّحَه. وهذا الانفراج «يكشف» عورتها، بل ويباعد بين الشُّفريْن، فتتّسع المسافة بينهما، وينكشف جُزءٌ من جسم الجنين. فالانكشاف يأتى من ناحيتين: الأولى – اتّساع ما بين الوركين. والثانى – اتّساع ما بين الشُّفْرين.

أمّا لماذا قيل: رجلٌ فريجٌ وامرأةٌ فريجٌ.. ولم تلحق التاءُ المربوطةُ بصفة المرأة؟ فذلك راجع إلى أن ما كان من الصفات على وزن «فعيل» بمعنى «مفعول» فإنها يستوى فيها المذكّر والمؤنّث. ولذلك نقول: رجل قتيل وامرأة قتيل. ورجل جريح وامرأة جريح. ولا نقول: فَريجة أو قتيلة أو جريحة.. إلا إذا جاءت الصفة دون ذكر للموصوف، كأن نضع عنوانا فلا نضع فيه الاسم المؤنّث، عندئذٍ نقول: «قتيلةُ الجوع». وهذا عنوان مقالة كتبها الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى عندما اكتُشف فى جبل المقطّم – شرقيّ القاهرة – جثةُ امرأة، تَبيَّنَ من تشريحها أنّ سبب موتها هو: الجوعُ. وطبعا.. لا يقع مثل هذا فى مجتمع يسودُهُ الإسلامُ. أما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١١ – ١٦].

وكما نقول: امرأةٌ فريجٌ.. نقول: نعجةٌ أو ناقة أو عنز.. فريج: إذا أخذت بالولادة فباعدت ما بين وركيها فانكشف ما بينهما.

والمُفرَجُ: الرجلُ الذى لا عشيرةَ له. وقد يبدو لأوّل وهْلَةٍ عدمُ ارتباط معناهُ بمعنى المادّة. ولكن الذى يدقق فى أمر الرجل المفرَج.. يجد أنه لا أعوانَ له يحيطون به، لأنه لا عشيرةَ له. مما يؤدى إلى أن تكون الأرض منكشفة حوله. على خلاف من له عشيرة يحيط به رجالها، مما يُغطى ما حوله من الأرض ولا يكشفها، وقد جاءت الصيغة على اسم المفعول من الرباعيّ، لأن كوْنهُ بلا عشيرة ليس من فِعله ولا من إرادته، وإنما هو مرغم عليه، وليس له حيلة فى دفعه.

والمُفْرِجُ: اسمُ فاعل، ويقال: دجاجة مُفرِجٌ: ذاتُ فَراريج. لأن الفراريج (ومفردها فرُّوجة وهى صِغار الدجاج) تُفرِج عن نفسها بنقر قشرة البيضة وكسرها والخروج منها

عندما يكتمل نموّها. وفى ذلك «انشكاف» للفرُّوجة أيْ «الصوص»[1]. وأصل الفرّوجة صفةُ مبالغةٍ، أىْ: كثيرة التفريج عن نفسها بنقر قشرة البيضة. ولأنها – فى أصلها صفة – فإنما جاز أن تأتى للمؤنث وللمذكر، مثل: داهية. فنحن نقول: رجل داهية وامرأة داهية. والتاء المربوطة، هنا، للمبالغة. ورجل علاّمة وامرأة علاّمة. وكما أننا نقول: جنينٌ للمذكر والمؤنث.. جاز أنْ نقول: صوص للذكر والأنثى من صغار الدجاج لأن الملامح التى تميز الذكر من الأنثى غير واضحة.

أمّا الفَرُّوج.. فلعله جمعٌ لفروجة. أما فراريج فجمع الجمع، غالبا، ومعروف فى اللّغة أنّ حذف الياء المربوطة من بعض الكلمات يجعلها جمعا، مثل: بقرة، وجمعها: بقرٌ، وشجرة، وجمعها: شجرٌ، ففرّوجة جمعها: فرّوجٌ، وجمع الجمع: فراريج.

وقد سُميَّت الدجاجة: مُفرِجا، على اسم الفاعل، لأن لها عملا لا يُنكر فى تحويل البيض إلى فرّوج أو فراريج. فهى ترقد على البيض ثلاثة أسابيع أو حولها حتى تخرج منه الفراريج.

طبعا، الفاعلية الأصلية لله تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦]... لأن البيض يتحول إلى فراريج بقدرة الله. ولذلك فالدجاجة فاعل مجازيٌّ.

كما أننا نقول: عُشْبٌ نابتٌ. فنصرف الفاعلية للعشب، لأننا نراه ينمو أسبوعيا بعد أسبوع، دون أن نرى فاعلا خارجيا يُنمّيه. مع أن الفاعلية، فى أصلها، لله تعالى. فالله مُنبِتٌ – بكسر الباء – والنبات مُنبَت – بفتح الباء – ولذلك فالفاعلية فى النبات إنما هى فاعلية مجازية، ويسمى هذا مجازا عقليا.

المُفَرَّجُ: المِشْطُ. لأن بين أسنانه انفراجا، أى: انكشافا. ولأنه يجعل الشَّعرَ مُنسابا بعد أن كان متكتّلا والانسياب صورة من صور الانكشاف أو الاتساع، لأنه يَمُدُّ الشعر إلى آخر مداهُ، ويجعل انفراج الشعرات.. بعضها عن بعض واضحا.

والمُنْفَرِجَةُ: الزاوية المنفرجة فى الهندسة هى التى تزيد على تسعين درجة. وبهذا ينكشف ما بين امتداد خطَّيْها، بل يزدادان انكشافا واتّساعا كلما امتدّا أكثرَ فأكثرَ.

---

(١) الصوص: صغار الدجاج، بين يوم وعشرة أيام. وبعض اللغويين لم يقبل هذه الكلمة لهذا المعنى. لأن هذا الاستعمال لم يرد فى المعجم بشكل مباشر. ولكن الجمهور الذى استعمل هذه الكلمة لهذا المعنى على صواب. لأن معناها فى المعاجم: البخيل. والعلاقة قائمة بين صوص الرجال وصوص الدجاج.. فالأول حقير الفَعال والآخر حقير الحجم. فالحقارة.. هى العلاقة الجامعة بينهما. إذن، قل: صوص الدجاج.. ولا تُبالِ.

والمتَفَـرِّجُ: جَمْعُـهُ: المتفرجون: وهم الذين يشـاهدون الصور فى السـينما أو التلفاز أو الفيديو أو الإنترنت، أو يشاهدون المسرحيات والعروض.. الخ. وهم متفرجون لأنهم يُبقون المسـافة بينهم وبين هذه الصور والمناظر «مكشـوفة». وهو استعمال حديث غير موجود فى المعاجـم. ولكنه اسـتعمال لا غُبارَ عليه، لأنه يجرى على نفـس القاعدة. أى: فيه المعنى المركزيُّ للفعل: (فَرَجَ)، ومعنىً جديدٌ تطلّبهُ التطوّرُ الحديث.

وفِعْلُهُ: تَفَرّج يتفرَّج. واسم المفعول: مُتَفَرَّج عليه. والمصدر: التَّفَرُّج، واسم المصدر: فُرْجَةٌ. والفُرْجَةُ أيضا هى الشيءُ الذى يُتَفَرَّجُ عليه، أيْ: بينه وبين المتفرِّج مسافة «مكشوفة».

وأُفْرِجَ عن السجناء: أُطْلِقَ سراحُهُم. والسجناء الذين أُطلق سراحهم.. «انكشفوا» بعد أن كان السِّجنُ يخفيهم. وأُفْرِجَ.. فِعْلٌ مبنيٌ للمجهول. ويمكن أن نورده مبنياً للمعلوم، فنقول: أَفْرَجَ مديرُ السِّجن عن السجناء، أى: أطلق سراحهم. وقد فُضِّل الفعل المبنيُّ للمجهول هنا علـى الفعل المبنيِّ للمعلـوم.. لأن هذا المعنى، الأصل أن يُعبر فيه بالفعل المبنى للمجهول. لأنه ليس المهم الشخص الذى أطلق سراحهم، وإنما المهم.. إطلاق سراحهم. ولأن «الإيجاز» مقصد من مقاصد الفصاحة إذا استطاع أن يُؤدّىَ المعنى.. المطلوب أداءا تاما. وهو هنا، مُؤَدٍّ للمعنى المطلوب وللمعنى المقصود.

وبعدُ: أرأيت أن هناك عشـرات الكلمات التى تتولد من الجذر اللُّغوى الواحد، وتتحد معه فى المعنى «المركزيِّ» إضافةً إلى معنى آخر جديد. مما يُسَهِّلُ تعلم اللّغة، بحيث يكاد المتعلم أن يعرف معنى عشرات الكلمات إذا عرف معنى الجذر اللغوى لهذه الكلمات؟

وأن اللّغة العربيّة منطقية وليست اعتباطية، لأن اللفظ فيها لا يأتى مقدما على المعنى، وإنمـا المعنـى لا ينفكّ عنه اللفظ الملائم له. ولهذا.. يأتى المعنـى غالبا جاريا على القواعد المتعـارف عليها فى اشـتقاق الألفاظ. ولكنه يأتى أحيانا اسـتثناءا على هذه القواعد، لأن المعنى لا يتضح وضوحا تاما إلا بهذه الاستثناء والله ولى التوفيق.

الموضوعُ الثانى

كَلِمَةُ (سَرَّ أو سَرَرَ)[1]

نعالج فى هذه المقالة.. أصلا لغوياً واحدا هو: « سَـرَرَ» بفكّ الإدغام، وبالإدغام «سرَّ»، وما تفرّع عنه، مما يشير إلى عبقرية اللّغة العربيّة، وقدرتها على التنويع من حيث الصيغ، ومن حيثُ معانى هذه الصيغ. وهو كالآتى:

١ – سـرَّهُ: فعلٌ ماضٍ، يسـرُّهُ سـرورا أى: أفرحه، والرباعيُّ منه: أَسَرَّ يُسرُّ الشيء أى: أخفاهُ وأظهرهُ. وهذا يعنى أنّ «أَسَـرَّ» من الأضداد. مثل: الجوْنِ، فهى تعنى الأبيض والأسود. ومثل: جَلَلِ.. فهى تعنى العظيم والحقير. ويتبين المعنى المقصود لهذه الكلمة التى لها معنيان متضادّان من «السـياق». وسُمّيّ السِّرُّ سِـرّا.. لأنه يَسُرُّ، صاحَبهُ عندما يكتمه، فالانسـان يُسَـرُّ عندما يجد أن إرادته من القوّة الكافية بحيثُ يتمكن من عدم إفشاء سرِّه. من ناحية أُخرى.. فإنّ الشخص الذى تُسارُّهُ أيْ: تُفشى إليه سِرَّكَ يُسَرُّ لأنّ معرفة الأسرار ممتعة للإنسـان الذى خُلِقَ بطبعه مُحِبا للاسـتطلاع، ولأنه يُسَـرُّ، أيضا بأنْ يعرف السِّرَّ. والإنسان يسعد عندما يشعر أن الآخرين يثقون به فيطلعونه على أسرارهم.

هذا.. معنى الإخفاء. أما معنى الإظهار.. فهو آتٍ من أن الإنسان يَنْدر أنْ يكتم أسراره. وإنما تضيق بها نفسـه فيعلنها إلى صديقه، مما يؤدى إلى إظهارها. لأنك إذا كنت بِسِـرِّكَ ضيّقا.. فصديقك به أشدُّ ضيقا، مما يدفعه إلى إعلانه وإظهاره لأحد أصدقائه. وهذا الأخير لا يقوى على كتمه بل يُذيعه بلا تحفُظ. وكلُّ سرٍّ جاوز الاثنين.. شاع.

ولعل أفضل تفسـير لقوله تعالى: «وأسـروا الندامة لما رأوا العذاب» أن بعض الكافرين أخفى ندمه وكتمه فى نفسـه، وأن بعضهم الآخر أظهر ندمه، وفضح نفسـه أمام الناس. وبذلـك.. اجتمـع الضّدان فى هـذه الكلمة فى موقعهـا من القرآن.. وهذا يشـير – من ناحيـة أخـرى – إلى إعجاز القـرآن اللُّغويِّ، فالكلمة فيه تحمل كلّ الشُّـحنة التعبيرية الكامنة فيها.

---

(١) كتبت سنة – ٢٠٠١م.

٢ – وتسـارُّوا: تناجَوْا. هذا معنى آخر لكلمة مشـتقة من «سَـرَرَ». وقد جاز أن يأتى من الأصل الثلاثى مُشـتقٌّ آخر بمعنى مقارب، وهو النجوى. لأن النجوى نوع من السِّـرّ، أو درجةٌ من درجات السِّـرِّ، لأن المُتناجين يقصدون أن يُخفوا موضوع نجواهم عن غيرهم مـن الناس. قال تعالى عن المسـلمين الذين يخفون سِـرَّهم عن الرسـول – صلى الله عليه وسـلم – : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة: ٨].

هـذا.. يعنى من جهة أخرى، أن لكثير من الكلمـات فى اللّغة العربيّة أكثر من معنىً واحـد. ولكنها كلهـا لها «صلة» من نوع ما.. بالمعنى الأصلـى. فليس هناك اعتباطية فى اشـتقاق كلمات من الجذر اللغوى، فى جميع الدّلالات التى تكتسبها هذه الكلمات خلال تطوُّر اللّغة، مما يدل على أن اللّغة العربيّة لغة «منطقية». أراد الله تعالى للعرب فى الجزيرة العربيّـة الذيـن يتكلمونها أن يكونـوا عقلاء منطقيين فى الدلالات التـى يعطونها للألفاظ المشتقة من جذرها اللغوى، بحيث يكون هناك «صلة» تربط بين كل هذه الدلالات. وذلك.. مما يسـهل تعلم اللّغة، فكل صيغة مشـتقة من الجذر الفعل (وهو: سرر)..، لابد من أن يتصل معناها بطريقة أو أخرى يدركها العقل بهذا الجذر اللغوى. فلنمِض بإيراد هذه الصيغ المشتقة من الفعل الثلاثي: سَرَرَ أو سَرَّ، عند الإدغام.

٣ – استسـرَّ الهلالُ آخر الشـهر: خَفِيَ. فهذا الفعل المكون من ستة أحرف.. إنما هو متصل اتصالا مباشـرا بجذره اللغوى «سَرَرَ». لأن سرَّه: من ناحية أفرحه. والفرحُ ينبع من الخفاء، وهو ما يحسُّ به المرء فى أعماقه. ومن ناحية أخرى فيه ظهور، وهو ما يبدو على أسارير وجهه من انبساط فالخفاء واضح فى المعنى الأول.

٤ – السِّـرُّ: الجِماع. لأن الرّجل والمرأة يعملان على إخفاء اتصالهما الجنسـّي.. ولكن آثار ذلك تظهر على ملامح الوجه. أما ترى الفتاة العانس يكون على وجهها من التجاعيد.. ما لا يكون على وجه من هى فى مثل سنِّها. إذا تزوّجت فى العشرين مثلا أو على الأكثر فى الخامسـة والعشـرين من عمرها؟ فالخفاء والظهور (وهما المعنيان المتضادان فى كلمة: أسـرَّ، بـل فى الجذر: سـرَّ) قائمان فى علاقة الجِمـاع. يُضاف إلى ذلك أنـه يتمثّل فى الجماع.. السرور وهو المعنى الأوضح فى الجذر: سَرَّ.

٥ – السُّـرِّيَّةُ هى الجاريــة المتخذة للمِلْكِ وللجِماع. وسُميت سُـرِّيَّةً.. لأن الجِماع فيه مَسرةٌ ولأن علاقة صاحبها بها خفية وظاهرة؛ خفية.. لأن من عادة الناس أن يخفوا عملية الاتصال الجنســى. وظاهــرةٌ.. لأنه معلوم بالعُرف أن الرجل الــذى يملك جارية جميلة.. يتخذها مكانا لمتعته فهذا الأمرالمعروف ظاهر الحقيقة.

وبالمناســبة نقول: إن عهد الجوارى قد مضى. لأن المصدرين الرئيســيين للحصول على الجــوارى إنما هما.. بيــع العبيد. والعبيد قد حُرّروا فى العصر الحاضــر.. فلم يَعُدْ بَيْعُهُمْ مقبولا أو واردا. ثم الحروب هى المصدر الثانى. ولكن تطور الزمن وتقدم الحضارة، والإيمان بكرامة الإنســان وحقوقه اللذين دعا إليهما الإسلام منذُ القديم، وأخذت بهما المجتمعات الحديثة. وثبّتت ذلك فى الوثائق التى تنص على وجوب احترام كرامة الإنسان والاعتراف بحقوقــه. هــذه الوثائق التى تبنّتها بعض الثورات الحديثة، وهيئة الأمم المتحدة التى تضم معظم العالم فى عُضويتها. بذلك.. جُفِّفَ المنبعان اللّذان يأتى عن طريقهما الرِّقُّ، وما يتبعه من اتخاذ الجوارى.

وبالمناسبة، مرةً أخرى، يقال: سُرِّيَّةٌ – بضم السين – وهى الجارية التى يمارس معها مالكها الجنس. وسِرِّيَّةٌ – بكسر السين – وهى «الحُرَّةُ» التى يمارس معها زوجها الجنس. وهــذا.. دليل علي دقّة اللّغة العربيّة فى اســتعمال الألفــاظ للمعانى.. فالمَعنيان المختلفان؛ غالبــا، يكون لكل منهما «صيغة» مختلفــة عن صيغة المعنى الآخر. ولو بالحركة والحركة هى نوع من أنواع الاشتقاق. وجُعِلَ اللفظ الأصعب عن طريق ضمِّ السين للجارية، والأسهل، عن طريق كسر السين للحرة، لأن امتلاك الحرة أقرب إلى الحق، وإلى الأمر الأصلى العام، من امتلاك الجارية.

٦ – السِّرُّ: ذَكَرُ الرجل. لأنه هو العضو المستعمل فى الجِماع.. بما ينطوى عليه الجماع من سِــرٍّ أى: من إخفاء. وبما ينطوى عليه من إظهار، كما وضَّحنا ذلك ســابقا لأن العضو، عند الجماع، ينتشر، فيبرز فى مكانه.

ثم.. من المعروف أن الرجل.. يُسَــرُّ (يفرح) بعضوِهِ التناســلى. وتســتطيع أنْ تقدر ذلك عندمــا تُــدرك ما يعانيه الرجل من حُزن وكمَدٍ الــذى يلد وليس له عضو.. خِلْقةً. أو الذى يُجَبُّ عضوُهُ لســبب من عشــرات الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى ذلك، أو الذى لا يُنعظ عضوُهُ لأنه هو الآلة التى توصله إلى السرور بالجماع.

٧ – والسرير: المُضطجع الذى يُنام عليه. والجمع أَسِرَّةٌ وسُرُرٌ. ولا شكّ أن نوم السرير أطيبُ من النوم على الأرض أو على البلاط. ولهذا.. يجد النائم على السرير شيئا من السُّرور. ثم.. إن السرير يُخفيهِ ويظهره، يخفيه لأن زَرَدَهُ يهبط به بعض الشيء لِثُقْله عليه، ويظهره.. لأنه يرفعه عن وجه الأرض إلى عين الناظر.

٨ – وتسَـرّرَ الثوبُ: تشـقَّق. ولا شك أن تشـقُّق الثوب يَظهر ويخفى. فمكان الشقوق يَظهرُ منه بعضُ جسم لابسه، ومالم يتشقَّق يُخفى تحته بعض جسم لابسه. أمّا أنه يَسُرُّ– فعلى معنين: الأول: يَسُـرُّ لابسه لأن تشـقق الثوب يعنى – غالبا – الحصول على ثوب جديد. والثوب الجديد يجلب السـرور إلى نفس لابسه.ويسوؤه.لأنه قد لا يجد ثمن الثوب الجديد.

والمعنـى الثانى – التضادُّ (وهو تضادٌّ آخر – غـير الظهور، والإخفاء – فهو تضادٌّ – لا فى جذر المادة، وإنما فى كلمة السـرور – خاصةً) .. فكلمة «سُـرور» كما تعنى الفرحَ قد تعنى –قليلا– الحزن . أما ترى أنه ورد فى معجم «لسـان العرب» قولُه: سَـرَّ البعيرُ يَسَرُّ – بفتح الياء والسّين – أصابه «السَّرَرُ» وهو داءٌ يأخذ بسُرَّةِ البعير؟ ولا شكَّ أن البعير الذى يصيبه داءُ السَّرَرِ يكون منظره حزينا، وجسمه منكمشا ذوايا، لأن السَّرَرَ لو أصاب الإنسان (وهو يصيبه) لأحسَّ بالحزن والكآبة.

إنَّ «التضادَّ» نوع من العلاقة كالعلاقة الإيجابية بين الألفاظ المشتقّة من أصل واحد. أما ترى أننا عندما يقال: لونٌ أبيضُ نقارنة باللون الأسود، فوريًا وعفويًا، ولا يستطيع الإنسان أن يـدرك البيـاض إن لم يدرك ضِدَّهُ السـواد. إنه نوع من العلاقة «السـلبية» الكامنة فى الأشـياء. فالحياة تنطوى على الموت، والشـباب ينطوى على الشيخوخة، والربيع ينطوى على الخريف، وهكذا... والتضاد .. قانون من قوانين تطوّر معانى الألفاظ.

وبعـدُ: فمن الواضح (من خلال هذه الصيغة الأصلية التى عالجناها) أنّ الاشـتقاق فى اللّغة العربيّة ركنٌ أساسـيٌّ، به نسـتطيع أن نشتقَّ عشـرات الصيغ (الكلمات) من الأصل اللّغـوى الواحد، وكلُّ صيغة مرتبطة بالمعنى «المركزيِّ» الـذى تدل عليه الصيغة الأصلية. ذلـك.. يعنـى أننا نهتدى إلى معنى عشـرات الصيـغ، من خلال معرفتنـا لمعنى الصيغة الأصليـة (المركزية) وهى غالبا الفعل أو المصدر بل قد تكون الصيغة الأصلية. اسما جامدا، مثلُ: اسـتحجر الطين، من الاسـم الجامد: الحجر. أو اسم استفهام مثلُ: كمِيّة من «كمْ»

الاستفهاميّة، و«كمْ» الخبرية. أو مثل: «ماهيّة» المشتقة من العبارة الاستفهامية: ما هي؟ أو حرف جرٍّ مثل: «عنعَنَ»[1] وما يُشتقُّ من فعل مضارع، ومصدر واسم فاعل واسم مفعول.. الخ. وهذا .. يشير إلى خطأ البصريين النحاة – والكوفيين النحاة فقد كان نحاة البصرة يَرَوْن أن الاشتقاق.. أصلُهُ المصدر. أما نحاة الكوفة فرأوْا أن الاشتقاق.. أصله الفعل. وهؤلاء – وأولئك لم يوفقوا إلى الصواب الكامل؛لأن الصواب الكامل أنه يشتق من المصدر ومن الفعل، وكذلك يشتق من الاسم الجامد، ومن الحروف.. كما أوضحنا، آنفا.

وهذا يسهّل على اللغويين أن يولّدوا من – الأصول – ألفاظا جديدة لتعبّر عن المعانى الجديدة التى تطرحها التطورات الحضارية كل يوم، فى مجال العلوم والمعارف المختلفة.

وبذلك.. تستطيع اللّغة أن تنمو وتتطور وأن تُجارى التطور الحضاريّ. واللّغة العربيّة من أقدر اللُّغات على استيعاب المعانى الجديدة. لأنها.. لغة الاشتقاق ولغة المعانى «المركزيّة» التى تنبثق عنها معانٍ كثيرةٌ.. تستوعب مستخرجات الحضارة.

(١) والحديث المُعَنْعَنْ: هو الذى رواه الراوى بقوله: عن فلان عن فلان.. الخ

الموضوع الثالث

تحليلٌ لغويٌ لكلماتٍ ثلاثٍ

فيما يلى كلمات ثلاث ننوى أن نعالجها، مسلطين عليها نظرا فقهيا، يسبر أغوارها ويوضّح دلالاتها اللغوية والصرفية وبعض ما يشتقُّ منها مما لم توردْهُ المعاجم وهى =:

١ - لواقح: ومفردها: لاقح. قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢]. والزمخشرى يقول فى تفسيره «الكشاف لواقح بمعنى ملاقح[1]. ونقول: أفضل من ملاقح.. مُلقّحات. لأن جمع مُلَقّحة - بفتح القاف - على مُلَقّحات أفصح من ملاقح. كما أن جمع مشكلة على مشكلات أفصح من جمعها على مشاكل.

ولواقح بمعنى ملاقح- أولا - لأن لاقحا تستعمل لاسم المفعول. نقول: ناقة لاقح أى مُلقَّحة - بفتح القاف وتشديدها - ونياق لواقح أى: مُلقّحات - بفتح القاف - والناقة اللاقح هى التى نَزَل عليها الفحل فأخصبها. وجاز أن يقال: لاقح ولواقح لأمرين: الأول- أن اسم الفاعل استعمل مكان اسم المفعول كما يقال: عيشة راضية بمعنى مرضيّة، كما ورد فى الآية السابعة من سورة القارعة، فاسم الفاعل سدّ مسدّ اسم المفعول.

- والثانى - أن العيشة المرضيّة فيها معنى الفاعلية، لأنها هى التى تؤثر فى أهليها فتجعلهم راضين. فهى اسم الفاعل فى المعنى لا فى الصرف. ومثلها لاقح ولواقح، فهى - أولا - بمعنى مُلقّحة - بفتح القاف وتشديدها - وهى ثانيا - يُلْمحُ فيها معنى الفاعلية، لأن الفحل لا ينزو على الناقة إلا وهى ضَبعَة أى: راغبة. ورغبتها نوع من الفاعلية فى المعنى، أمَا ترى أن الله تعالى قال: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور: ٢]. لأن معنى الفاعلية يلمح فى المرأة الزانية، فلم يعلُها الزانى إلا وهى راغبة. ولذلك لا تُسمى المرأة المغتصبة - زانية، لأنه يفعل بها وهى غير راغبة.

- وهكذا الرياح.. فهى لواقح بمعنى: مُلقِحاتٍ - بكسر القاف - لأنها هى التى

---

(١) سورة (الحجر - ٢٢]

تُخصِب الغيوم بالمطر. وهي لواقح بمعنى اسم المفعول لأنها تتأثر برطوبة ما تغشاهُ من الغيم. كما نقول: قضية لاغيةٌ أى: ملغية. وهذا.. يدلّ على غنى القرآن الكريم بالدلالة.. فقد استعمل: لواقح لتعطى معنى الفاعلية ومعنى المفعولية، لأن المعنين يُلمحان فيها.

– أما لماذا قلنا: ناقة لاقح – بصيغة المذكر أو بلا تاء التأنيث المربوطة – ولم نقل لاقحة بصيغة المؤنث؟ فالسبب أنه يُؤْتى بالتاء المربوطة للتفريق بين المذكر والمؤنث، إذ نقول: رجل شاعر وامرأة شاعرة. وذلك عندما تكون الصِّفة صالحة للمذكر والمؤنث. أما عندما تكون الصفة صالحة للأُنثى فقط.. فلا حاجة إلى هذه التاء التى هى تاء التفريق، ولذلك نقول: امرأة حامل، عندما يكون فى أحشائها جنين، ولا نقول: حاملةٌ.. لأن الرجل لا يحمل جنينا ولذلك نعدل عن – حامل – ونقول: حاملة عندما تحمل خبزا مثلا – لأن حَمْل الخبز تقوم به المرأة ويقوم به الرجل. ولذلك نقول: رجلٌ حامل خبزا، وامرأة حاملة خبزا.

– يبقى أنه يجوز أن نقول فى غير نصِّ القرآن: الرياح مُلقحات – بكسر القاف – على اسم الفاعل، أو ملقحات – بفتح القاف – على اسم المفعول. لأن هاتين الصيغتين قياسيتان. ونحن يجوز لنا – لتيسير استعمال اللّغة – أن نقيس، مع ورود السماع فى القرآن او فى كلام العرب الذين يُحتج بلغتهم. والسماع أقوى، لأنه الأصل ولكنّ القياس – هنا – مشروط بأن نريد فى الاشتقاق الجديد مَعْنىً جديدا. أما إذا كنا نعبر عن ذاك المعنى فما جاء عن العرب– أوْلى. ولا ينقاس، وإنّما ينقاس ما يُوَلّد لمعنىً جديد..

٢ – شَمَّتَ: عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله– صلى الله عليه وسلم – يقول: « إذا عَطَسَ أحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللهَ.. فشمتّوهُ. فإن لم يَحْمَدْ اللهَ.. فلا تُشمِّتوهُ» رواه مسلم.

وقد رجعت إلى المعجم لأتأكد من معنى «شَمَّتَ» فوجدت المعجم الوسيط يقول: « شَمِتَ به أو بعدوِّهِ شماتةً: فرِح بمكروه أصابه، فهو شامتٌ، جمع: شُمّاتٍ، وهنَّ شوامتَ. وأشمتَهُ اللهُ بعدوِّهِ: جعله يشمتُ به. وفى التنزيل العزيز

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

وشمّته – بتشديد الميم – بمعنى أشمته. وشمّت العاطس وعليه: دعا له بالخير. كأن يقول له: يرحمك الله».

ومما ورد فى: لسان العرب» :..والشوامت: قوائم الدابةِ، واحدتها: شامتة.. قال النابغة الذُبيانى:

فارتاع من صَوْتٍ كَلاّبٍ فباتَ لهُ طوعَ الشوامتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ

والذى ارتاع هو الثور الوحشى عندما سمع أمرِ الصياد لكلابه لكى تلحق به.. فأسرع الثور الجرى على شوامته (أى قوائمه) هاربا من الصياد ومن كِلابِهِ.

– إذن، كيف استُخدِمَتْ كلمة (شمَّتَ) بمعنى الدعاء للعاطس، ومعناها فى هذين المعجمين المعتبرين: فرح بمكروه يصيب العدو؟ استعملت بمعنى الدعاء للعاطس ذلك لأحد سببين أو.. لهما معا وهما:

السبب الأول: أن الرسول الكريم استخدم الكلمة بمعنى «السلْب» أى: سلب منها معنى الشماتة (الفرح بمكروه يصيب العدوّ)، وأعطاها المعنى الجديد – وهو المعنى النقيض– وهو الدعاء للعاطس بخير كطلب الرحمة له، وهذا السلب معروف فى اللّغة. فقد سمّى أحد الخلفاء جاريةً – له – رائعةً الجمال. «قبيحة» وذلك لأمرين: الأول – سلب القبح منها. ومن يُسْلَبُ القبح منها وتعطى المعنى الضدّ فهى – غالبا – جميلة. والثانى – مواقاةً من العين. فالخليفة لا يريد أن يقال لها: الجميلة حتى لا تصاب بالعين.

ونحن نستخدم معنى السلب فى مهنة من أهم المهن وهى «التمريض» فنقول: الممرض والممرضة. ومعناها فى الأصل الذى يجلب المرض للناس. ولكن هذا المعنى «سُلِبَ» منهما، فتُعورِفَ على ان الممرض والممرضة هما اللذان يداويان المريض، فيسلبان منه المرض، بقدرة الله تعالى أو يحاولان.

السبب الثانى فى « شَمَّتَ».. أن القوائم تُسمى «شوامت» لأنها تستطيع أن تنجى الإنسان أو الحيوان من عَدُوّهِ هربا منه. فكأنها – بإنجائها صاحبها – تَشمتُ بالعدو أو تُشمّتُ صاحبها بالعدوّ. وعلى هذا فمعنى «شَمَّتَهُ» ادعُ له بشوامت قوية– قادرة على إنجاء صاحبها من عدوّه. ولا تكون الشوامت هكذا إلا اذا كان الإنسان أو الحيوان صحيح الجسم. أما يقول مريض القلب أو الكِلى أو المعدة.. للطبيب: «رِجْلاى لا تكادان تحملانى؟» فالرجلان أو الأرجل (الشوامت) تتأثر بصحة صاحبها، فتضعف فى المرض، فلا تنجى صاحبها من العدوّ، وتقوى فى الصحة.. فتُنجى صاحبها وقد تكون الرجلان للإنسان والأرجل للحيوان نفسها مريضة.. فلا تُنجيه من العدو بل تمكن العدو منه. وبذلك

لا «تطيعه الشـوامت المريضة، فى حين كانت شـوامت الثور الوحشى الذى وصفه النابغة «تطيعـه، لأنه كان صحيحا، وكانت هى صحيحة كذلك» وهذا نوع من المجاز الذى أطلق فيه –الجزء– وأريد الكلُّ.

وبالمناسبة.. فإن الشعراء فى الجاهلية؛ جُلُّهم، كانوا يجعلون الحيوان ينجو من الصياد، نصـرا للحياة علـى الموت. والصراع بين الصياد وكلابه وبين الحيـوان.. يمثل الصراع من أجل الحياة فى الجزيرة العربيّة التى كان أهلها – فى الجاهلية – يعانون كثيرا من أجل العيش. لقد كانت تقوم الغزوات من أجل السـيطرة على منابع الماء والكلأ.. طلبا لاستمرار الحياة وتشبُّثا بالحياة.

– يبقـى أن نقـول: إن قول المعجم: شـامتٌ جمعه شُمّاتٌ وهنَّ شـوامتُ. لا يعنى أنه لا يجوز أن تأتى بالجمع القياسيِّ وهو: الرجال شامتون بعدوهم وللنساء شامتات بعدوهنّ. أما قال أبو ذُؤيب الهذليُّ، عندما توفى له أربعة أبناءٍ، فى طاعون فشا فى مصر:

وَتَـجَـلُّـدِى للـشـامـتينَ أُريهُم أنّى لريبِ الدّهرِ لا أَتَـضَعْضَعُ

وهـذا الجمـع يأتى مرفوعا بالواو ومجرورا بالياء، لأنه جمع مذكر سـالم. وأبو ذئيب ممن يُحَتجُّ بلغته.

أمـا المعجـم فقد اكتفى بذكر الجمعـين اللذين أودرناهما لأنهمـا لا يخلوان من غرابة. وهذا دأب المعاجم.. تذكر من المشـتقات ما ليس قياسـا وما كان غريبا. وتترك القياسـى والمأنوس – غالبا – اعتمادا على معرفة المهتمين باللّغة.

وإنه ليجوز لعامة القُرّاء أن يشـتقّوا ما يشـاؤون، لأداء معنى، ما دام الاشتقاق قياسيا. ويجـوز للكتـاب والأدبـاء واللغويين.. أن يشـتقوا – بذوقهم المصقول – اشـتقاقاتٍ غير قياسية. لان اللّغة – أى لغة – تنمو وتتطور بوسائل عدة، منها هذان النوعان من الاشتقاق وبهجرهما (وهجر سائر الوسائل) تتراجع اللّغة، وتتخلف عن مجاراة متطلبات الحياة.

٣ – طائح: وقريب من الاشـتقاقين اللذين ذكرهما المعجم الوسـيط: (شُمَّاتٌ وشوامتُ) قول اللسـان، وكذلك القاموس المحيط الذى ينقل كثيرا عن اللسـان، دون أن يُشير إليه: «طاح يطوح طوحا ويطيح طيحا: أشـرفَ على الهلاك ثم يقول: «وطَوَّحَته الطوائح: قذفته القـواذف. ولا يُقال: المطوّحات. وهو من النوادر كقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر – ٢٢].

وقد بينا سابقا أنه يجوز أن نقول: لواقحُ ومُلقِحاتٌ – بكسر القاف – فى غير القرآن بمعنى أن هذا الجمع – مُلقِحات– لم يرد فى القرآن، وما لا يرد فى القرآن لا يحل محل لفظ فى القرآن.. ومثلها: الطوائح. فأنا أرى أن تَحَكُّمَ اللسان بأنه لا يجوز «المطوحات» تَحَكُّمٌ يخالف طبيعة اللّغة التى يُقبل فيها القياس إلى جانب الاستثناء أو «النادر» كما قال عنه اللسان، فى الحالات التى ترد فيها صيغةٌ نادرة. لقد مد البصريون القياس على الأعم الأغلب وفضّلوه على السماع. وهو ما ورد قليلا أما الكوفيون فقد قاسوا على السماع القليل والسماع الكثير. وهذا أهدى. وبهذا الانفتاح واحترام القياس على القليل إلى جانب القياس على الكثير، تنمو اللّغة وتتطور. نحن طبعا لا نُخَطّئ من يستعمل النادر أو نعيب عليه، لأنه «سُمِعَ» عن العرب. وكل لغات العرب حُجّةٌ، كما يقول ابن جِنّى، صاحب كتاب «الخصائص». وهو عُمدةٌ فى فهم اللّغة والتضلُّع فى التفقُّهُ فيها أقول: إلا فى الإعرابِ– فالإعرابُ يجب – وُجوبا – أن يؤخذ فيه – بوجه واحد – فقط؛ لأن الإعراب – فى كثير من تراكيبه جاء ليعبر عن معنىً مضافٍ إلى معنى اللفظ، وقيام إعرابين على الكلمة فى تركيب..ينقض سبب وجود الإعراب. والإعراب الذى يؤخذ به – إن وُجِد – إعراب القرآن، وإن لم يوجد.. فإعراب لغة قريش، فإن لم يوجد .. فإعراب أفصح لهجة من اللهجات الستّ الأخرى. وإننا لنشجع الذى يستعمل القياس على الكثير وعلى القليل. لأن القياس.. أقرب إلى أن «يعلم» ويتمدد فى عروق اللّغة بل إن الاستثناء أو النادر.. يصلح أسلوبا «معتمدا» لتعليم اللّغة عند علماء النحو فى الكوفة. واللّغة العربيّة، بشكل عام، لغة قياسية، اذ يغلب عليها القياس فى النحو وفى الصرف وإن النادر الذى سُمع عن العرب لا ينقاس، وإنما يُقاس عليه، إنما الذى ينقاس هو كلام المُوَلَّدين.

أكثر ما يصحّ «لمعجم اللسان، ولأى كتاب لغويّ آخر أن يقول: «ولم يستعمل العرب إلا الطوائح» لأننا أبناء العرب، وكما كانت اللّغة لغتهم.. فهى الآن لغتنا. ولنا، بل واجب علينا أن نفعل كلّ ما يجعلها متطورة صالحة لهذا العصر، وللعصور اللاحقة، ومما يجعلها تتطور مدُّ القياس النحوى والصرفِ والدلالى سواءٌ على مذهب البصرة أو على مذهب الكوفة، أو تجاوز المذهبين.

يبقى أن أقول: إن «طاح» أصلها: طوّحَ وطيَحَ. لأن عين الفعل، واويّة ويائية. وذلك فالمصدر: طَوْح كما ورد فى المعجم، وطَيْحٌ أيضا كما نرى. بل يمكن أن يُقال: طوَحانٌ مثلُ

نفرانٍ وغليانٍ. واسم الفاعل طائح، أصلها: طايح وطاوِح. ثم قلبت الياءُ والواو همزةً. كما نقول: قال يقول: قائل. وقال يقيل (أى: ينام وقت الظهيرة)، واسم الفاعل قائل. فقد قُلبت الواو فى «قال» الأولى.. همزة، كما قلبت الياءُ فى «قال» الثانية.. همزة كذلك.

– ومعروف أن «طائحة» جمعها: طوائح – كما وردت فى المعاجم. والطوائح أصلها: طواوِحُ وطوايحُ، لأن فعلها واويٌّ ويائيٌّ أى.. نقول: طاحَ يطيحُ ويطوحُ. ويجوز أن تُجمع طائحة على طائحات (إضافة إلى ما أوردته المعاجم)، لأن الطائحات.. اشتقاق آخر فى اللّغة، وهو جمع قياسيٌّ لطائحة لا غبار عليه عند العقلاء من المشتغلين باللّغة. بل إنه ليجوز للغويِّينَ والأدباء أن يستعملوا – إلى جانب الصيغة القياسية على الأعم الأغلب – القياس على مع وجود الصيغة النادرة التى يقاس عليها أيضا إذ احتيج إليها لأن توليد ألفاظ جديدة للمعانى الجديدة أمر ضرورى جدا، لكى تبقى اللغة حية وتساير التطور فى الحياة.. ولذلك.. يجوز أن نقول: طاح طيحا إضافة إلى قول المعاجم: طاح طوحا، لأن الفعل يائى وواويٌّ، كما أسلفنا.

وبعدُ: فإن الذى يظنّ أن المعاجم حَوَتْ كلَّ المشتقات إنما يدلل على جهله باللّغة. إن قُصارى ما تأتى به المعاجم هو جذور الكلمات وبعض المشتقات الغريبة. أما جمهورُ المشتقات.. فتوليده من مسؤولية اللغويين والأدباء والكتاب للتعبير عن المعانى الجديدة التى يأتى بها تطوّر الحياة كل يوم. وبغير فتح باب القياس والاشتقاق على الكثير. وعلى القليل.. تَضْمُرُ اللّغة. وهذا الضمور.. ما نحاول أن نتحاشاهُ وأن نُبعد عن اللغة مأتاهُ.

الموضوعُ الرابعُ

مادّةُ الفعل «عندَ» / تحليلها لُغويًا[1]

في هذه المقالة.. أركّز على شيئين:

الأول – أن كل المشتقات من مادةٍ لغويةٍ واحدة، وما أكثرها، ترجع كلُّها في جزءٍ من دلالتها، إلى المعنى الأصلي أو المركزي الذي يتضمنه الفعل أو يتضمنه أيُّ أصلٍ لغويٍّ آخر، سواءٌ أكان الأصل فعلا أم مصدرا أم اسمَ ذاتٍ أم حرفا.. الخ ثم يستقلُّ كلُّ مشتقّ بمعنىً خاصٍّ به.

الثاني – أن أبيِّنَ من خلال الأمثلة، أن اللّغة العربيّة (بل كل لغةٍ) تتطور دلالات الألفاظ فيها بحيثُ تحمل اللفظة معانيَ مختلفة من عصور مختلفة، يموت بعضها أو يتراجع في الاستعمال ويبقى بعضها الآخر حيًا. وكذلك تتطور مادّتُها.. فتنشأ اشتقاقات جديدة للتعبير من معانٍ جديدة. لأن المعنى الجديد.. إما أن تحمِلهُ لفظةٌ قديمةٌ أو يُشتقّ له لفظةٌ جديدةٌ. إنّ المعاجم تحوي «جذور» الكلمات، وبعض المشتقات. ولكن معظم المشتقّات كامنة في جذورها.. تظهر عند الحاجة.

– ولذلك.. يجب أن يُسمح بالتطور اللُّغويِّ، سواءٌ أجاء عن طريق دلالاتٍ جديدةٍ للألفاظ أو عن طريق اشتقاقِ ألفاظٍ جديدةٍ، لأن حياة اللّغة تكمن في أن يُسمح لقوانين اللّغة أن تستمرّ في فاعليتها. ومن قوانين اللّغة تطوُّر الدّلالة بشقّيه السابقين، وتوليد مشتقات جديدة. وهذا .. لا يتعارض مع أن الفصحى، في أصولها، إلْهاميّة.

– وفي الصفحات اللاحقة سنُعالج مادة «عَنَدَ» ومُشتقّاتها:

١ – يقول معجم لسان العرب: «.. رجل عنيدُ: عاندٌ» يعني المعجم أن معنى (عنيد) هو: (عاند)، وأنا أرى أن هذا نوع من التوسّع «فليس من صيغتين في اللّغة العربيّة بمعنىً واحدٍ. فصيغة رحيم مثلا ليست كصيغة راحم. لأن الأولى تعني توكيد الرحمة. أما الثانية فتعني الذي عِنده رحمة عادية، كما هو حال نسبة كبيرة من الناس. أما ترى أن الحق تعالى قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥١] فأرحم الراحمين ليس راحما وإنما هو فحسْبُ رحيمٌ، لأنه مفضّلٌ على الرّاحمين أي:

(١) كتبت سنة – ٢٠٠١م.

لأن (أرحم الراحمين) – رحيم . أى: صيغة «توكيد». ومفردها: راحم. أما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

فالله تعالى – لهذا – لم يوصف فى القرآن كله بأنه راحم، بصيغة اسم الفاعل، وإنما وصف بأنه رحيم وهى الصيغة التى تدل على توكيد الرحمة لأنها صيغة مبالغة[1] أى: صيغة ثبات وتوكيد. وهذه أكثر توكيدا من اسم الفاعل.

– لهذا.. فعاندٌ اسم فاعل، ولذلك ففيه من العناد قدرٌ محدود. ولكن عنيدا صفة ثابتة مؤكدة، ففيها من العناد الشيء الكثير. ولذلك فالعاند يمكن أن تثنيَهُ عن عناده، أما العنيد فلا يمكن ثَنْيُهُ، لأن العناد مترسِّخٌ فى جِبِلّتِهِ. أمَا ترى أنّ أبا بكر قال فى خطبة له: «وسترون بَعدى مُلكا عَضوضا ومَلِكا عنودا؟» والعنود قريب من العنيد، (وليس مثله)، لأن كليْهما صفةٌ ثابتة مؤكدة.. فيه من العناد أكثر مما فى اسم الفاعل: عاندٌ. بل أما ترى قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: ٥٩].

فالجبار لا يوصف بعاندٍ التى تقلّ فيه كمية العناد[2]، وإنما يوصف بعنيد. لأنها هى

---

(١) الحدُّ الفاصل بين صيغة المبالغة (ويمكن أن نُسميها صيغة تكثير أو توكيد وثبات وخاصة فى القرآن) والصفة المشبهة (وهى الصفة الثابتة المؤكدة).. هو أن الأولى تأتى من الفعل المتعدى – غالبا– أما الثانية فتأتى من الفعل اللازم ولا تلتفت إلى أيّ استثناء لا يبين الفرق فيه واضحا بين المعنيين، والقياس نرى أن يكون لازما فى الإعراب، لأن الحركة فى الإعراب لها معنىً خاصّ، فإذا تغيرت الحركة من غير أن يتغير العامل بطل المعنى الخاصّ، فبطلت قيمة وجود الحركة . وهذا ..مُنافٍ لطبيعة العربية (المُعْربة) – ونرى أن يكون لازما فى معانى «الصيغ» الصرفية، لا فى معانى «الألفاظ» لأن الألفاظ، لكل اشتقاق منها معنىً لغويّ خاصّ. فإذا قلنا – مثلا: (أثّاقلتم) اختلف المعنى عن (تثاقلتم) . ولا تسد أىٌّ منهما مسدَّ الأخرى، لأن (أثاقلتم) فيها توكيد للتثاقل أكثر من (تثاقلتم). وليس كذلك معنى (الصيغة) الصرفية المطردة، فإذا قلنا : (صبور) كان فيها من المبالغة مثل الذى فى (شكور). يبقى أن أقول: فى القرآن لا نقول: (صيغة مبالغة) تأدّبا معه، وإنما نقول: (صيغة توكيد) – لأن القرآن لا يُبالغ، وإنما القرآن (موزون) يضع كل شيء فى موضعه، لأن إصلاح اللّغة يستدعى مدَّ القواعد والقياس على طول المادة المعالجة. ومع ذلك.. فنحن لا نخطئ الاستثناء بل يمكن أن يصبح قاعدة. وفى باب صيغة المبالغة، وهى توكيد– على الأصحّ– وباب صيغة الصفة المشبهة، وهى : صيغة توكيد وثبات – على الأصح – المعنى الإعرابى .. ليس فيصلا، فى أمر صيغة المبالغة دائما، بل قد تأتى الصيغة من فعل متعدٍّ، ومع ذلك تكون – صفة مشبهة – أى: صفة مؤكدة ثابتةً. هذا .. يعنى أن الفيصل – أحيانا – المعنى، وليس دلالة فعل الصيغة – الإعرابية: (انظر: كتابى (الرؤى النحوية–٤/٦٥–٧٠).فقد ثبتّ فيه هذا – الاصطلاح – الأخير.

(٢) كمية المعنى فى «عنيد» أكثر منها فى «عاند» تعنى أن الأول يدلُّ على التوكيد، والثانى لا يدلُّ على توكيد.

الصيغة التى تناسب الجبار على وزن «فعّال» وهى صيغة صفة ثابتة مؤكدة. والجبار: المتكبّر والقاهر العاتى المتسلّط. فلا يصحُّ ان يقال حتى فى كلام البشر: كل جبار عانِد. لأن الصيغتين تنافرتا فى كمية المعنى. وقال تعالى كذلك: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: ٢٤]، فلم يقل الحق تعالى كل كافر.. لأن كمية المعنى فى كافرٍ أقلّ بكثير من كفّار. ولم يقل: كافر، لأن كمية المعنى فيها أقل منها فى كفّار. إذن، الكلمتان المنسجمتان، إحداهما مع الأخرى، هما: كفّارٌ وعنيدٌ أيْ: صيغة: فعّال وفعيل، وهما صفتان مؤكدتان ثابتتان. والشاعر العظيم المتنبى قال:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتّالُ

فلم يقل: قاتل وإنما جاء بصيغة التوكيد: (قتّالُ) على وزن: فَعّال، لأنه أراد أن يؤكد المعنى الذى ورد فى بيته. قد يُقال: إن وزن الشعر ألْجَأَهُ إلى ذلك. فنقول: إن الشعراء الكبار لا يُعجزهم الوزن، فهم قادرون على التصرّف بحيثُ ينسجم المعنى مع الوزن. إن المعنى شيءٌ مُهمٌّ عند الشعراء الكبار، ولذلك يندر أن يُفرِّط أحدهم فيه من أجل الوزن. فالانسجام تامّ بين المعنى والوزن – كلها تنبثق معا.

ونقول: لكأنّ ابن منظور عندما قال فى اللسان: «عنيدٌ: عانِدٌ» إنما أراد إلى جانب التوسُّع فى المعنى التوضيح أى: إن عنيدا مشتقةٌ من عاند فأصل المعنى فى عاند. ولكن توكيد المعنى جاء بصيغة عنيد. وعاند مشتقّة من الفعل «عَنَدَ».

٢ – ثم قال اللسان: «العُنود والعنيد بمعنى».

وأنا أرى أن اللّغة لم تأتِ بكلمتين لمعنى واحد. كما عرفنا فى صيغتى عاند وعنيد السابقتين.. ولكن تأتى اللغة بمعنين أو أكثر لكلمة واحدة. لأن المعانيَ غيرُ متناهية. أما اللّغة فمتناهية، فمن حكمة الخالق التى وضعها فى العربيّة (وفى غيرها) أو فى صدور الناطقين بها أن المتناهيَ (اللّغة) لا يقبل أبدا التعدّد للمعنى الواحد، أما غيرُ المتناهى (المعانى) فإنه يقبل أن يتعدد للكلمة الواحدة، ليكون للكلمة الواحدة عدةُ معانٍ. لأن الكلمة تتطور معانيها بين عصر وعصر. أما كانت الصلاة فى الجاهلية تعنى مطلق الدعاء ثم أصبحت فى الإسلام، تعنى عند الإطلاق هذه الصلاة المفروضة على المسلم، هذه الحركات وقراءة القرآن والأدعية التى يقصدُ بها المسلم عبادة ربه، طاعةً له لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]. لم يمت معناها الأول وإنما تراجع أمام المعنى الثانى.

أمـا تـرى كذلك أن – الحاجب – فى الجاهلية كان يعنـى العظم الذى فوق العين بمـا عليه من لحم. وهو أيضا: الشـعر النابت على لحـم هذا العظم. ثم أصبح يعنى فى العصر العباسـى (إضافة إلى المعنيين السـابقين) الرجل الذى يتولى أمر المراجعين ليدخل بعضهـم إلى الخليفة ويصرف بعضهـم الآخر؟ أما ترى كذلـك أن لفظة: المأذون كانت تعنى الشـخص الذى يسـمح له بالدخول أو الخروج أو القيام بعملٍ ما. ثم.. أصبحت (إلى جانب المعنى الأول) الشيخ الذى يُوَثّقُ عقود الزواج؟ هذا معنى محدث جدّ وأدخله المعجم الوسيط الى موادِّه.

– هـذا تطورٌ لغويٌّ لا بدّ منه، لكى تواكب اللّغة التطور وتسـتجيب للمعانى الحديثة. ولا شـكّ أنّ الاشتقاق قانون آخر من قوانين التطور اللغوى. لم يكن العرب يستعملون كلمةٍ «حاسـوب» مثلا، لأنه لم يكن قد جدّ عندهم معنىً يسـتدعى مثل هذا الاشتقاق من الفعل «حَسَبَ». ولكن عندما اخترع الـ (Computer) وجاء الى بلادنا كان الأولى ألا نُبقيهُ على اسمه الأجنبى (= الانجليزيّ) وإنما نشتقّ له اسما من لغتنا، وكان الاشتقاق مُوفّقا.

– إذن.. عنود ليسـت بمعنى عنيد. والدليل الأول على ذلك أن لسـان العرب يقول: العنود الناقة التى لا تخالط الإبل، ولا تزال منفردة عنها، تبحث عن أجود المراعى. والعنود يُطلقُ على ذكرِ الإبل كذلك الذى لا يخالط الإبل، بحثا عن أجود المراعى. فالعنود.. تطلق على المذكر والمؤنث من الإبل. وقد تطلق على الرجل والمرأة من باب المجاز؛ فالرجل العنود هو الذى يلتزم العزلة ولا يخالط الناس، والمرأة العنود هى التى لا تخالط الرجال ولا تندفع لمخالطة النساء. والدليل الثانى – أن القرآن الكريم استعمل كلمة (عنيد) أربع مرّات، ولم يستعمل (عنودا) ولا مرّةً واحدةً. فلو كانت الكلمتان بنفس المعنى[1] لاستعملها مرة أو مرتين مثلا. أما عنيد، فمعناها: المعارض ذو المعارضة الشـديدة. وقد وضح هذا المعنى فى قول الله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١٦] أى: جاحدا ومُعارضا.

– طبعـا، هـذا.. لا يعنى أنه ليس من لقاء فى أصـل المعنى بين عنيد وعاند، وبين عنيـد وعنود. فأصـل معنى مادة «عَنَدَ» تَجَبَّرَ وخالفَ وعـارضَ. وكلها ترجع الى معنى واحد: فالمتجبِّر لا شكَّ أنه مخالفٌ ومعارضٌ. والمخالفُ معارضٌ. ولم يُطلق على المتجبر

(١) بعـض اللغويـين يخطّئون عبارة «نفس المعنـى» أو نفس الكلمة ويرون أن الصّحيح هو: المعنى نفسُـهُ أو الكلمة نفسُها. والصواب أنها جائزة فقد ورد مثلُها فى (الكتاب) عند سيبويه (الكتاب: ٣/ ٣٥٢) وورد فى (لسان العرب): نفسُ الجَبَلِ مُقابلى.

هذه الصفةُ إلا لأنه يتمسك برأيه ويحمل الآخرين على قبوله، وفى ذلك رفضٌ ومخالفةٌ لآرائهم.

– إن هذا المعنى يشير إلى أن كلّ المشتقات المتولدة من الفعل «عَنَدَ» كلها تلتقى فى أصل المعنى.. ثم يكون لكلّ مشتقٍّ معنىً خاصٌّ به، ومن أمثلة ذلك:

(أ) تعاند الخصمان: تجادلا. والمجادلة تتضمن معنى المعارضة لأن كلاً من المتجادلين يعارض خصمه راغبا فى التفوق عليه. ولن يكون تفوّقٌ بلا معارضة ومخالفة. ولعله يُلمح معنى التجبر كذلك.. لأن المجادل يحاول أن يستطيل على خصمه. والاستطالة لا تخلو من تجبر. والخصمان كل منهما يعمل على مخالفة خصمه والاستطالة عليه قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ق: ٢٨] أى: لا يُعارضْ بعضُكم بعضا، كل منكم يُلقى المسؤولية على الآخر.

(ب) العانـد: البعير الذى يجور عن الطريق ويعدل عن القصد. وهذا يعنى أنه بجوره عن الطريق يعارض الطريق ويخالفها، ويمشى مع ما لم يكن ممهدا من الأرض.

(ج) وعندتِ الطعنةُ: إذا سال دمعها بعيدا من صاحبها. وسيلانُ الدم بعيدا عن صاحبه إنما هو مخالفة لصاحبه الذى يتمنى ألا تسيل منه قطرة واحدة. إنه يخرج على رغبة صاحبه أى: يعارضها.

(د) وعَانِدةُ الطريق: ما عُدِل عنه فعَنَدَ. أنشد ابن الأعرابى:

فإنكَ والبكاءَ بعدَ ابنِ عَمْرو لكالسارى بعانـدةِ الطريقِ

يقول اللسان: (رُزِئت عظيما فبكاؤك على هالك بعدهُ ضلال. أى: لا ينبغى لك أن تبكى على أحدٍ بعده). وما عُدل عن الطريق من المسارب إنما اعوجّ عن الطريق. وما اعوجّ عن الطريق فقد خالف الطريق وعارضه.

(هـ) وقال ابنُ الأعرابى «عاند فلانٌ فلانا: فَعَلَ مِثْلَ فعله. والذى يفعل مثل فعلك إنما هو يحاول أن يضاهيك. وكأنه بذلك يريد ان يكسب الصنعة – مثلا – منك. ولا شكّ أن الذى يقلّد شخصا ينطوى على مفارقته أو مخالفته. وذلك عن طريق مضاهاته أو الاستقلال عنه بعد ان يتقن الصنعة. أما ترى أن كل كاتب أو شاعر يبدأ بتقليد كاتب كبير أو شاعر كبير، ثم بعد أن يتمرس يستقل عنه أى: يخالفه أى: يعانده؟ بل أما ترى أن النقاد سَمَّوْا القصيدة التى يحاول صاحبها أن يأتيَ بها على غِرار قصيدة أخرى فى الوزن والقافية، مع اختلاف المعنى

(أى: مع معارضة معناها للقصيدة الأقدم) سَمّوْها (القصيدة المعارِضَة) وأطلقوا على القصائد التى تأتى فى هذا الباب (المعارَضات) والمصدر: معارضةٌ: وجمعه: مُعارضاتٌ؟ ومن هذا النوع من القصائد سينية شوقى التى مطلعها:

اختلافُ النهارِ والليلِ يُنسي ... اذكرا لِى الصِّبا وأيامَ أُنْسِى

فقد عارض بها سِينِيَّةَ البُحْتُرِيِّ التى مطلعُها:

صنتُ نفسى عمّا يُدَنِّسُ نفسي ... وَتَرَفَّعْتُ عن جَدا كُلِّ جِبْسِ[1]

فقافية قصيدة شوقى هى السين كقافية قصيدة البحترى. ووزنها كَوَزْنها. فهو: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن. وهى تفعيلات البحر الخفيف. ولكن الموضوع مختلف من حيثُ المكان الذى وصف؛ فالبحترى وصف إيوان كسرى وشوقى وصف المسلمين فى الأندلس، كقصور قرطبة وقصور الحمراء. والجامع بين الإيوان والقصور هو خُلوُّها من ساكنيها واقترابُها من أن تكون أطلالا؛ الموضوع العامّ واحد، ولكن «صورة» كل من الموضوعين مستقلةٌ عن الأخرى أى: معارضة لها.

(وس) يقول لسان العرب: «ويقال: عاند فلان فلانا أى: يفعل مثل فعله، وهو يعارضه ويباريه» قال: والعامة يفسرونه.. يعانده يفعل خلاف فعله. قال الأزهرى: «ولا أعرف ذلك ولا أُثبته».

– وأقول: يحسُن أن أشير – أولا – إلى أن العامّة ليسوا.. العوامّ وحدهم. وإنما هم جمهور الناس من كُتّاب وأدباء وعوامّ. وعامّةٌ – بهذا – شبيهة بكافةٍ – بل حتى اذا نظرنا الى العامّة أنهم جمهور الناس، مُستثنىً منهم الكتاب والأدباء. فإنهم يمتلكون سليقة لغوية خفية. إن معظم كلمات العامة أى: اللهجات العامية إنما هى من الفُصحى مع سقوط حركات الإعراب فإذا صحّحَ اللغوى لفظ بعض الحروف المبتعد عن الفُصحى كلفظ الكاف (تشاف) فى مثل الكاف فى «لك: إذ يلفظ كلفظ (ch) من كلمة (chair) فى اللّغة الانجليزية..

– إذا صحّح ذلك.. أصبحت الألفاظ العامية فصيحةً بنسبة تسعين بالمئة تقريبا[2].

---

(١) الجَدا: العطاءُ، يعطيه الخليفة أو الأمير إلى السائلين من شعراء وغيرهم. والجِبس: الثقيل الجافى الغليظ.

(٢) ومثلُ الألفاظ التراكيبُ.. فَنِصْفُ التراكيب تقريبا مُماثلة لما فى الفُصحى.. لأن أصل العامية من الفُصحى أى: من اللهجات العربيّة الفصيحة. أما نصفها الآخر فمفارق للفصحى.. لأن العامية سقطت منها=

لأن العامة (وحتىّ العوامُّ) لا يستعلمون الألفاظ لغير معانيها فى الفُصحى إلا من باب التطور فى الدلالة والاشتقاق الذى سنعرض له تاليا.

(ز) إنّ سليقة اللّغة متمكنة من نفوس العامة (أو الجمهور) لأنهم يتلقونها من المهد إلى اللحد، وذلك بتلقيهم العاميّة أولا القريبة من الفُصحى، كما أسلفنا. ثم العامية والفُصحى فى وقت واحد معا. ولذلك.. فهم قادرون على تطوير اللّغة (واللّغة التى لا تتطور تموت) فى الألفاظ عن طريق الاشتقاق، وفى المعانى عن طريق تطوُّر الدلالة:

– فمن تطويرهم للألفاظ مثلا أن الفِعل «فَتْفَتَ» موجود فى المعجم. ولكن الاسم المشتقّ منه غير موجود. ولكن العامة اشتقته وهو «فتفوتة» وجمعه «فتافيت». وهما اشتقاقان (المفردُ، والجمعُ) لا غبار عليهما، ويجدر إلحاقهما بمفردات المعجم الفصيح. ثم اشتقوا من الفعل

=الحركات، والحركات لها أهمية كبيرة فى نوعية التركيب. مثلا فى الفُصحى قال القرآن الكريم: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وذلك بضمّ آخر إبراهيم، وآخر يعقوب–عليهما السلام– والضم! دلّنا على أن إبراهيم ويعقوب قد وصيا بها (أى: بكلمة الإسلام) بَنِيهما. عرفنا ذلك.. لأن «يعقوب» جاءت مرفوعة كإبراهيم، فهى فاعل مرفوع بالضمة الظاهر على آخره كما أن إبراهيم فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة على آخرها. ولولا الحركات (حركة الضم هنا) لاعتبرنا أن إبراهيم وصّى بنيه بكلمة الإسلام ووصّى أيضا يعقوبَ بها، لأن كلمة يعقوب جاءت بعد المفعول (بنيه).

ولذلك فالعامّة.. لا يستيطعون أن يوردوا هذا المعنى إلا بإحدى طريقتين: الأول– أن يقولوا: ووصى إبراهيم بها بنيه، وكذلك وصّى يعقوب بها بنيه. والثانية– أن يقولوا: ووصّى إبراهيم ويعقوب بها بنيهما.

والطريقة الأولى فيها وضوح، ولكنّ فيها تطويلا. فهى أطول من عبارة القرآن. ولا شك أنّ البلاغة فى الإيجاز إذا تساوى التعبيران فى أداء المعنى. وتعبير القرآن أوجز بكثير من تعبير العامّة، فالبلاغة كامنة به لا بتعبير العامة. أما الطريقة الثانية فقد خلطت بين الأهم والمهم، أى: جمعت بين إبراهيم ويعقوب متتاليين لا يفصل بينهما إلا حرف العطف. ومن حقّ تمام المعنى أن يُباعَدَ بينهما.. فيأتى إبراهيم فى أول العبارة، ويأتى يعقوب فى آخرها، بعد أن يكتمل المعنى. وسببُ هذا الفصل أنّ إبراهيم هو أبو الأنبياء، فيعقوب لا يساويه فى مرتبة النبوّة. أما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. يضاف إلى ذلك أنّ يعقوب حفيد إبراهيم. ومن حقّ الجدّ أن يتقدم على حفيدِه. أما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم–: «ليس منّا من لم يرحمْ صغيرَنا (ويرفّرْ) كبيرَنا»؟.

واضح من هذا أن عبارة القرآن أوجزُ وأوضح من تينك العبارتين اللتين اقترحناهما. وواضح من هذا أيضا لماذا يضطر العامة أن يفارقوا بتراكيبهم تراكيب الفصحى فى نصفها تقريبا ذلك لسقوط حركات الإعراب عندهم. ولعله قد وضح من ذلك أيضا أن لحركات الإعراب قيمةً كبيرةً فى اختصار التعبير وتوضيح المعنى. (ملاحظة: إبراهيم وحفيده يعقوب ممنوعان من الصرف، بسبب العِلْمَيّةِ والعُجمةِ). ملاحظة: ورد مثل هذا الكلام سابقا.

«خَرِفَ».. فعلا آخر هو «خَرْفَنَ». ومعنى خَرِفَ الرجل: فسدَ عقلهُ من الكِبَر. وخرفن: فسد عقله من الكبر كذلك، ولكن بصورة أكبر بحيث لم يَعُدْ يعى شيئا. فالرجل الخَرِف عند العامة هو الذى فسد عقله مع بقية، أما الرجل المَخْرِفنُ فهو الذى فسد عقله فسادا تاما. والعامة بهذا تجرى على قواعد الصرف فى العربيّة. أما قالوا قديما: «سَرْجَنَ» من السِّرجين وهو ما تُسَمَّدُ به الأرض. فسَرجَنَ الأرضَ سمدّها بالسرجين، وهو نوع من الزِّبل؟ وقالوا أيضا من: رجل أزْرَقُ رجل «زُرقُم». قال الأصمعى: «ومما زادوا فيه الميم: زُرْقُمٌ للرجل الأزرق الشديد الزُّرقة». أقول: فالميم زائدة لزيادة فى المعنى، لأن القاعدة المشهورة فى فقه اللّغة تقول: «كلّ زيادة فى المبنى تدلّ على تغيّر أو زيادة فى المعنى». والعكسُ صحيحٌ: «فكل زيادة فى المعنى تستدعى زيادة فى المبنى» أما ترى أن «حُسبانا» التى آخرها الألف وزيدت فيها النون على كلمة «حساب».. تُعطى معنى زائدا على ما فى: حساب. فهى تعنى الحساب الدقيق دقةً كاملةً. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥] ولم يقل: بحساب لأن الحساب أقلّ دقةً من الحُسبان. ولا يصلح للشمس والقمر إلا الحساب الدقيق دقة متناهية فلو انخفضت الشمس عن مسارها لاحترقت الأرض ومن عليها وما عليها. ولو ارتفعت عن مسارها لتجمدت الأرضُ ومن عليها وما عليها كذلك.

– إذن.. زيادة المبنى فى خَرْفَنَ دلّت على معنىً إضافيٍّ. وكذلك: زُرقمٌ. وأنا أرى أنه يمكن أن نشتقّ من الأخيرة فعلا فنقول: زَرْقَمَ أى: اشتدّتْ زُرقَتُهُ لأن العرب اشتقّوا من الفعل ومن المصدر ومن اسم الذات ومن الاسم الجامد ومن الضمائر بل ومن الحروف. أما قالوا حديث مُعنعن، وعَنعن الحديث ومشتقاتٍ أخرى؟ وذلك للحديث الذى يرويه الراوى بصيغة: عن فلان عن فلان.. الخ.

– وفى رأيى أن هذه الإضافة التى أضافتها العامة للفعل خَرِفَ.. قياسا على استعمال العرب للفعل: «سَرْجَنَ» أو للصفة «زُرْقُم».. مهمة جدا ويجب أن تستخدم مع بعض الأفعال والأسماء، فنقول: حَدْثَنَ الآلات بَدَلَ: حَدّثها. لأنَّ: حدَّث توحى أوّل ما توحى بالحديث أى – الكلام –، وليس بتحويل الآلات إلى وضع حديث[1]. ونقول: عَصْرَنْ الأشياء عصرنةً.. وذلك بتحويل الأشياء إلى وضع عصرى. لأن عَصَرَ الأشياء، بالتخفيف، وعَصّرَ الأشياء بالتشديد.. لا تدلان على معنى تحوُّل الأشياء إلى صورة

(١) صحيح أن بعض الكلمات فى العربيّة تحمل معنيين أو أكثر.. ولكن الوضوح التامّ يستدعى أن يكون لكل كلمة معنىً خاصٌّ بها، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. لأن العقل واللّغة ينشدان الوضوح. وفيها بضعة قوانين يجب أن تراعى: الوضوح ثم التيسير ثم الخفة ثم الانسجام، ثم.. المُشاكلة.

عصريّة إذ أن معنى: عَصَرَ العِنَبَ ونحوَهُ: أخرج ما فيه من سائل أو شراب: ومعنى: عصَّرَ: بالغ فى العَصْر. وعصَّرَ الزرعُ: نبتت أكمامُ سُنبله. وهما بعيدان عن معنى العصرنة. ولكن العصر هو الدهر أو ما يسبق المغرب من الوقت. وهذا يمكن أن يشتقّ منه معنى جديد هو الزمن الحاضر. كأن يقال: هذا اللباسُ عصريٌّ، وهذا جُبّةٌ عصريَّةٌ. ولكن هاتين الكلمتين.. صفتان وليستا مصدرين كالعصرنة. ثم هناك الفعل: عاصَرَ. بمعنى عاش فى العصر نفسه الذى نعيش فيه. ولذلك يقال: شاعر مُعاصر وكاتب معاصر.. ولكنه لا يسدُّ مسدَّ المصدر: العصرنة. ومثلُ العصرنة.. الحدثنة فالتحديث لا يُغنى عنها ولا يوحى بظلالها.

– ولكن هذا لا يعنى أن نستحدث معنىً لكلِّ فعل بتحويله إلى فعل رباعيّ عن طريق إضافة نون أو ميم فى آخره. لأن ذلك كالنحت: يستعمل نادرا عندما تُعِيى المتكلم أو اللغويَّ وسائلُ الاشتقاق الأخرى. لأن النّحت هو تكوين كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر. وذلك قد يقود إلى غموض فى غير الكلمات الكثيرة التكرار، لأن التكرار يزيل الغموض، واللّغة تنفر من الغموض. وهذا النوع من الاشتقاق لا يستعمل إلا بشرطين: الأولُ – أن يكون مقبولا فى الذوق الذى تطبعه اللّغة فى نفس من يمارسها أو فى نفوس الأدباء – بالدرجة الأولى. والثانى – أن يستجدَّ معنىً لا يُؤدّيهِ الفعل، خاليا من النون أو من الميم.

– ما سبق هو تطوير للألفاظ بالاشتقاق. أما التطوير عن طريق المعانى فمن أمثلته: كلمة «الفانوس».. فمعناها الأصليُّ: الرجلُ النمّام. أما معناها الحديث الذى التقطه المعجم الوسيط من استعمال العامة: فهو: مِشكاةٌ مستقلةٌ، جوانبها من الزجاج، يوضع فيها المصباح لِيَقِيَهُ من الهواء أو الكسر. ولا شك أن بين المعنين «علاقةً» كما هى طبيعة تطوُّر المعانى للألفاظ. فالرجل النمّام يكشف أخبار الناس المستورة، والمصباح يكشف ما حوله من الأشياء فالانكشاف مشترك بين المعنين وطبعا.. لا تنتقل كلمة من معنىً إلى معنىً إلاّ أن يكون بين المعنيين (علاقة) ما..

وكلمة «نَخْطا» فى قولنا: جاء الكاتب بفكرة.. نَخْطا من رأسه أى: ابتكرها دون سابق مثال. فهذا معنى طورته العامة لها. أما معناها فى المعجم فهو نخط إلى القوم نخطا: خرج عليهم فَجْأة. والفكرة التى ليس لها مثال سابق لها معنى المفاجأة، لأنها تُفاجئُ صاحبها نفسه، وأكثر من ذلك.. تُفاجئُ القارئ.. فالمفاجأة.. ملحوظة فى المعنيين.

– ومثل هذين المعنيين معانٍ كثيرةٌ ربطها الاستعمال بألفاظ لكلٍّ منها معنىً قديمٌ أو

معـانٍ قديمةٌ، معظمها بقيـت معانيها القديمة إلى جانب المعنـى الحديث. ولكن أولَ من أطلـق المعانـيَ الحديثة على هذه الألفاظ.. غير معروف، فهـى توليد جماهيريٌّ كالقِصص الشعبية والملاحم البابلية منها واليونانية أو التى وجدت عند شعوب أخرى.. فقائلها الأول مجهول غالبا.

٣ – بَعْـدَ هـذه الجولة مع تطـور الدلالة من حيثُ الاشـتقاق والمعانى.. نعود إلى قول الأزهريّ عن «عانَدَ»: قال ابن الأعرابيِّ: «والعامة يُفسّـرونه.. يعاندهُ: يفعل خلاف فِعلِهِ» قال الأزهريُّ: «ولا أعرف ذلك ولا أُثبتُهُ».

– ونقـول: إنّ «خَالَـفَ» هو أصلُ معنى عانَدَ. لأن المعاند هو المتجبر والمخالف والمعارض. وقد سبق أن بيّنا أن بين هذه الألفاظ الثلاث مشتركة فى المعنى. ولذلك فإنكار الأزهريّ لهذا المعنى هو نوع من مواقف كثير من أصحاب المعاجم الذين هم يعرفون اللّغة، ولكنهم ليسـوا فقهـاء فيهـا. ولا ريب أن عثمان بن جنّى فى كتابة «خصائـص العربيّة» أفقهُ فى اللّغة من معظم أصحاب المعاجم. وإلا.. فكيف يقول الأزهرى (صاحب معجم تهذيب اللّغة): لا أعرف ذلك ولا أُثبته. أما يعرف أن الألفاظ تتطور معانيها فتكسب معانيَ جديدةً يطرحها الاستعمال وتَجَدُّدُ حياة الناس؟ بل أما يعرفُ أن الكلمة تكتسـب معانى جديدةً مُبرّرها الوحيد أن لها «علاقة» ما.. مع المعنى الأصلى للكلمة.. وعاند وخالف بينهما اشتراك فى المعنى.

– إن مشـكلة علماء اللّغة فى العصور المختلفة أنهم قلَّما يعترفون بالاشـتقاقات الجديدة التـى لم تكن موجـودة فى المعاجم. وقلما يعترفون بالمعانى الجديـدة التى يطرحها الواقع والاستعمال من خلال الاشتقاق أو إضافة معنى جديد للفظة قديمة.

– وذلك.. قاد إلى نتيجة خطيرة جدا: فلم تنمُ اللّغة الفصحى نموًّا كافيا بحيثُ تستجيب لما يطرحه العصر الحاضر من معانٍ وأسماءِ صناعاتٍ وأدواتٍ وأسماء أدويةٍ وأمراضٍ، تتدفَّق على ذاكرة العالم كلَّ يوم بالعشرات.

– ثمّ.. أصبح هناك حاجز بين اللّغة وبين أبنائها، بحيث أصبح المثقف يحسُّ أن بينه وبين لغته جَفْوةً مما يدفعه إلى أن يتعلم الإنجليزية وَيَرْطَنَ بها. لا لأن الإنجليزية أسـهلُ من العربيّة، فالعربيّة أسـهلُ من الانجليزية وأرقى، بل لأن علماء اللّغة لا يتسـاهلون فيما يعدونه خطأً، وهو فى معظمه ليس خطأً، وإنما هو نوعٌ من التطوُّر الذى إذا لم تمارسْهُ اللّغة تقوقعت وانكمشت، ولم يَعُدْ – لها وجود معقول فى حياة الناس والمثقفين خاصة.

لقد قرأت كتاب (معجمُ الأغلاطِ اللغويةِ المعاصرة) للأستاذ المرحوم محمد العدنانى. ولا أُبالغ إذا قلتُ: إن أكثر من نصف ما خطّأهُ هو صواب يمكن بالنظر اللطيف ردُّهُ إلى التطوّر المتماشى مع قوانين تطور اللّغة العربيّة بل اللُّغات عامة.

وختامـا: فإن من عوامل تطور اللّغة العربيّة، إضافـةَ دلالاتٍ جديدةٍ للألفاظ القديمة، ولكن لابد من أن يكون هناك «علاقة» بين المعنى القديم والمعنى الجديد. لأن اللّغة لا تتقبلُ ألفاظُها المعانى عشوائيا، وإنما تتلقاها بحساب دقيق عن طريق إلهام الناطقين بها ذلك أو طريق الفطرة السليمة، وأن من عوامل التطور الاشتقاق بحيث تتولد ألفاظ جديدة لكثير من المعانى الجديدة (التى لم تستوعبها الألفاظ القديمة). ولابد من أن يكون هناك «علاقة» بين المعانى المختلفة لهذه المشتقات – كما عرفنا فى مادّة «عند» التى عرضنا لها فى الصفحات السابقة – فتشترك هذه المشتقات بالمعنى «المركزي» أو الأصلى، ثم يستقلُّ كلُّ مشتق بمعناه الخاص به.

– إن تَطَوُّرَ اللّغة (كلِّ لغة)سـرٌّ عجيب يمارسـه أهلها بصورة أقرب إلى «الإلهام» سواءٌ أكانـوا متعلّمـين أم غـير متعلمين. والأصـحُّ.. أن الفئتين تتكاتفان علـى إبداعه أمّا أصل اللغـة العربيـة الفصحى فهو (إلهام) – كما بسـطنا معظم أدلته فـى الفصل الأول – من هذا الكتاب..

الموضوعُ الخامسُ

المَقلة وتطوُّرها اللُّغويُ

الأصل فى الـمُقْلة: شـحمةُ العين التى تجمع السـواد والبياض وقد اشـتُقَّ من الـمُقْلة المصدر وهو المَقْلُ أى: النظر إلى الشيء، لأن النظر إلى الشيء يأتى عن طريق النظر بالمُقلة. وقد اشـتقّ من المقْل.. الفعل: مَقَلَ. بل قد يكون الفعل قد اشـتق أولا ثم جاء منه المصدر فالاشـتقاقات تأتـى من كل صنوف الكلمات فى اللغة، وليـس من المصدر والفعل وحدهما – وإن كان الاشتقاق منهما – أكثر.

لقد قال البصريّون: لا يجوز الاشـتقاق إلا من المصدر. وقد أوردوا لذلك أسـبابا.. أهمها أن المصدر لفظ معنويٌّ والمعنويُّ مُقدّم على الفعل، لأن الفعل ليس شيئا معنويا بل .. حَدَث وزمن. ولأن المصدر حدثٌ من غير زمن أما الفعل. والمعنويُّ أسـبق فى الوجود من الماديِّ، والحـدث دون زمـن مُقدّمٌ على الحدث مع الزمن، لأن البسـيط مُقدّم على المركّب.فالمصدر مقدم على الفعل – فالاشتقاق منه.

– ولكن الكوفيين رأوا أنَّ الفعل هو الأصل والمصدر مشتقٌ منه، لأن اللُّغات فى بَدْءِ تكوينها تنتقل من المادى إلى المعنوى، واللغات كالأمم التى تدرك فى بَدْءِ تطورها المحسوس (المادى) قبل المعنويّ الذى يأتى متأخرا فى تطور الأمم، لأن الذى يكون ناميا عند الإنسان فى بداية الحياة إنما هو الحواسُّ وليس العقلَ ولأن اللغة هى نتاج تطور الإنسان – ما عدا العربية.

بيـدَ أننا نجـد أنّ اللّغة فى تطورِها لم تُؤيّد رأيَ البصريـين وإنما أيدت رأى الكوفيين إلى حدّ ما. لأن الفعل يسـبق المصدر.. غالبا، مثل كلمة: كَتَبَ، فقد سبقت المصدر: كَتْبٌ أو كتابةٌ لأن الفعل حَدَثٌ، والحدثُ غالبا محسـوس وحياة الإنسـان بدأت بالمحسـوس – بشكل عامّ– قبل المعنوى (المجُرّد).

– بـل إن اللّغة، فى تطورها تجـاوزت رأيَ البصريين ورأيَ الكوفيين معا لأن الفريقين كانـا يعتمد أن على فذلكات ذهنية – وخاصّةً البصريين منهم– لا تقوم على وعى لطبيعة اللغـة، وتدقيق فى واقع اللغة، فكما اشـتُقَّ من الفعل.. اشـتقّ من اسـم الذات فالمصدر

«المَقْلُ» إنما اشـتقّ من اسـم الذات «المُقلة» أو أن الفعل «مَقَلَ» اشتقّ من اسم الذات نفسه «المُقلة» ثم المصدر «المَقْلُ» اشتق من الفعل مَقَلَ.

– بـل لقد اشـتقَّ العرب من الحروف ومـن الضمائر ومن الأسمـاء الجامدة ومن أسماء الأصوات ومن الأعيان (الجواهر أو الذوات) وقد عرضنا لهذا . سابقا.

– بل لقد اشـتقّ الناس من الفعل: مَقَلَ فعلا خُماسـيا هو: تمقّل، وهو من المُقْلة أيضا. والفرق بينه وبين الفعل الثُّلاثّى أن فيه تأكيدا على النَّظر إلى الشيء أكثر من الفعل الثُّلاثّى، فتمقّل تعنى: دقّقَ النَّظر إلى الشيء. ومسوّغُ وجود أيّ لفظة جديدة هو أنها تُعبِّرُ عن معنى جديد. لأن من صفات اللّغة الراقية أنها تسـتجيب لكلّ المعانى. بأحد قوانين تطوّر اللّغة ونموّها التى عرضنا لها خلال هنا الكتاب.

بقـى أن أقول: إن الفعل: «تمقّل» ليس موجوداً فى المعجم، وإنما هو اشـتقاق حادث يجـدر أن يُضاف إلى المعجم. كما تفعل الأمم المتحضرة التى تضيف إلى المعجم ما يسـتجد مـن ألفاظٍ كلَّ سـنة. بل كما فعل أجدادنا فى عصور الازدهـار الذين أضافوا آلاف الألفاظ إلى المعاجم.

الموضوعُ السادسُ

تحقيقُ لفظِ كلمةِ (أَبَيِّنُها)

في سنة ألف وتسعمائة وثلاث وستين كنت طالبا في مرحلة الإجازة في اللّغة العربيّة في جامعة دمشق. وقد درسَ لنا أحد أساتذتنا وهو الدكتور شكرى فيصل يرحمه الله، قصيدة النابغة الذُّبيانيّ المعلقة التى مطلعها:

يا دارَ مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأمَدِ[1]

وقد قرأها لنا بصوته الحنون، وقد قرأ البيتَ الرابعَ فى القصيدة على النَّحو التالى:

إلاّ الأَواريَّ لأْياً – ما– (أُبَيِّنُها) والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمَظْلومَةِ الجَلَدِ[2]

– وكلمةُ (أَبَيِّنُها) تُقرأ بفتح الهمزة والباء والياء المشدّدة وضمّ النون، ولكنْ قرأها (أُبَيِّنُها) بضمّ الهمزة وفتح الباء وكسر الياء المشدّدة وضم النون. وهذه القراءة «خاطئة» فى نظرى. لأن معنى (أبيِّنُها): أُوَضِّحُها للناس. والشاعر لم يقصد ذلك، وإنما قصد أنه هو لا يستطيع أن يَتَبَيَّنَها. أى: إن أصل الكلمة: (لأْيا ما أَتَبَيَّنُها). فحذف الشاعر تاء الفعل، فأصبحت (أَبَيَّنُها) كما كتبناها آنفا.

– وهذا الحذف جائز فى اللّغة: جائز أن تُحذفَ تاء الفعل الماضى، وأن يبقى حرف المضارعة، سواءٌ أكان الهمزة (كما فى الحالة السابقة) أو التاء أو الياء أو النون، ويجمعها كلمة (نأتى). أما لماذا تُحذف تاء الفعل ولا يحذف حرف المضارعة؟ السبب أنه إذا حُذف

---

(١) العلياء والسند.. اسما مكانين كانت تسكن فيهما – مَيَّةُ– حبيبة الشاعر.
– أقْوَتْ: أقفرت وخلت من أهلها.
– الأمد: الزمن، وسالف الأمد: الزمن الماضى.

(٢) الأوارىّ: جمع آريّ وهو حبل تربط به الدابّة.
– لأيا: صعوبة ومشقّة.
– ما أَبَيَّنُها: ما أتبيّنُها، ما أتعرفها إلا بصعوبة.
– النُّؤى: القناة التى تحفر حول بيت الشعر.
– المظلومة: الأرض التى يُحفر فيها النُّؤْى. وهى مظلومة لأنها قليلة الماء.
– الجلد: الأرض القوية الصلبة أو الحفرة المتماسكة البناء.

obeikandi.com

حرف المضارعة وهو – هنا– الهمزة (أ).. فإنه يُحذف بِحَذْفِهِ «معنىً» وهو المضارعة أى: الدلالــة على الزمن الحاضر كثيرا أو المســتقبل قليلا. أمــا إذا حُذف حرف التاء من الفعل الماضــى.. فإنه يبقى بضعةُ أحرفٍ تدل على «الفعل». ففى حالة (تَبَيَّنُ) الواردة فى البيت تحذف التاء ويبقى أربعة أحرف هى (بَيّنَ) التى تدل على تمام الكلمة فَحَذْفُ معنى كامل بحذف حرف المعنى (الهمزة) هو حذف لكلمة بهذا الحرف، لأنه ذو معنىً مستقل، وليس كذلك حذف التاء من الفعل السابق.

وَحَذْفُ حرف الفعل المضارع وارد فى الشــعر وفى القرآن الكريم.. قال دُرَيْد ابنُ الصِّمَّةِ فى قصيدتهِ الداليّة التى منها البيت المشهورُ:

وهل أنا إلاّ من غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ غَـوَيْـتُ، وإنْ تَـرْشُـدْ غَـزِيّـةُ أَرْشُـدِ

قال منها:

وكـنــتُ كـأنـى واثــقٌ بـمُـصَـدِّرٍ (يَمَشَّى) بأكناف الجليبِ بِمَحْتِدِ

– (يَمَشّــى) بفتح الياء والميم والشــين المشدّدة.. أصلها هو: (يَتَمَشّى) بفتح الياء والتاء والميم والشــين المشدّدة. وكلتا الكلمتين.. فعل مضارع، الأولى – حُذفت منهما تاءُ الفعل. والثانية – أُعيدت لها تاء الفعل.

وقد أوردها أحد الكتاب وهو الدكتور جميل علوش أحد الذين لهم المعرفة باللّغة.. هذه الكلمة على صيغة (يُمَشِّــى) بضمّ الياء وفتح الميم وكســر الشين المشددة، وذلك فى معرض إنكاره لأهمية الشــعر الجاهلى، وأنه (الشــعرالجاهلى) – بزعمه – لا يخلو من أخطاء فى اللّغة والوزن. وعلّق على هذه الكلمة بقوله: «فكلمة (يُمَشِّى) هنا ضعيفة؛ إذ الأصل فيها أن تكون إذا ضُعِّفت.. متعدية. ولكنه استعملها.. لازمة». فقد اعتبرها الكاتب من الفعل الماضى (مَشَّــى) بفتح الميم والشــين المشــددة. فصححتُ له قراءته الخاطئة. وبيّنْتُ أنها تُقرأ على النحو الذى أســلفتُ، وبذلك تكون لازمة وليســت متعدية[1]. ومثلها من القرآن (وهو كثير) قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤]، فـ (تشقق) بفتح التاء والشــين والقاف المشــددة الأولى، وضم القاف الأخيرة هى فعلِ مضارع، الصيغة التامــة منه عندما تُــرَدُّ إليه تاء الفعل المحذوفة هى (تَتَشَــقَّقُ) بفتح التــاء الأولى والثانية

(١) مُصَدِّر: حصان يسبق الخيل فيكون فى صدرها.
– أكناف: جوانب الشيء وأطرافه.
– الجليب ومحتد: موضعان.

والشين والقاف الأولى المشددة، وضمّ القاف الأخيرة. والفرق بين حذف تاء الفعل وبقاء حرف المضارعة بين القرآن وكلام البشر.. أنها تأتى فى كلام البشر على الجوازِ أو لضرورة الوزن، كما وَضَحَ لنا من بيت النابغة، وبيت دُريد، فقد حُذِفَ حرف المضارعة جوازا. وقد أخذنا بهذا الجواز لضرورة الوزن. فالوزن لا يستقيم فى البيت الأول لو قال النابغة: (ما أتَبَيَّنُها) برَدِّ التاء المحذوفة. ولا يستقيم فى البيت الثانى لو قال دريد (يَتَمَشّى) بردِّ التاء المحذوفة.

أما فى القرآن فالحذف يأتى «للوجوب» لسببين: الأول – أنه لا يجوز أن نُحِلّ كلمة فيه محل أخرى.. وإن كان الفرق حذف حرف أو إضافة حرف. خلافا لكلام البشر الذى يمكن أن يضاف اليه ويحذف منه، حتى فى الشعر إذا استقام الوزن والمعنى. مثلا فى بيت المتنبى الذى لم يَرْضَ عنه النقاد لورود كلمة (تؤذى) فيه، وهو:

تلذُّ لهُ المروءةُ وهى (تُؤْذى) وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لَهُ الغرامُ

قال النقاد: «إنّ – تُؤْذى – قلقة فى موضعها، لأن صاحب المروءةُ لا يتأذّى من فعل المروءة. أما سمعت قولهم: (يهتزُّ للنّدى) والهِزّة نوع من الفرح أو السعادة أو الانتشاء. فى هذا البيت يمكننا أن نغير هذه اللفظة القلقة بلفظة أفضل منها.. كأن نقول: «تلذّ له المروءةُ – لو تُنَجِّى –» (فلو تنجّى) أفضل فى هذا المكان من اللفظة التى أوردها الشاعر. ومعنى الشطرة هنا: «تلذّ له المروءة»لأنها تملؤه[1] حبورا، لكنها لا تنجّى من القتل أو الموت.

أمّا قال الشاعر، يمدحِ معْنا ابنَ زائدةَ:

فلَوْ أنَّ حمْدا أخلَدَ الناسَ لَمْ تَمُتْ ولكنَّ حمْدَ الناسِ ليس بِمُخْلِدِ

السبب الثانى – أن هناك علّةً لاستعمال القرآن لأيِّ كلمة سواءً وردت كاملة أم حُذِفَ منها حرف أو أضيف لها حرف. وَهَمُّنا هنا حذف تاء الفعل الماضى (تَشَقَّقَ) بحيث أصبحت فى المضارع (تَشَقَّقُ). هناك فرق بين (تَشقَّقُ) بحذف التاء و(تَتَشَقَّقُ) بإثبات التاء. إن حذف أيّ حرف من الكلمة يجوز حذفه.. يجعل الكلمة أسهل لفظا، ولذلك فقولنا: «سَلْ ما بدالك» أسهلُ من قولنا: «اسألْ ما بدالك» وعلى هذا (فتشقّقُ) بتاء واحدة أسهل لفظا من (تَتَشَقّقُ) بتائين. وهذه السهولة تُشير إلى سهولة تَفَطُّرِ الأرض عن الأموات عندما

(١) تملؤه.. يمكن أن تُكتَبَ على صورة أُخرى هى (تملأُهُ). وكلا الإملاءين صحيح. فإذا كتبتها بالواو فقد غلّبت صوت الحرف لأنه مضموم وواقع فى داخل الكلمة. وفى مثل هذه الحالة يجوز أن تكتب على (الواو). وإذا كتبتها بألف فوقها همزة فقد غلبت أصل الكلمة وهى (تملأْ) قبل أن تدخل عليها (ها).

obeikandi.com

يأمرها ربُّها يوم القيامة، لكى يخرجوا خروجا سهلا لا صعوبة فيه. ولذلك فهم يخرجون «سراعا». إن سهولة تَفَطُّرِ الأرض يُسهّل عليهم الخروج سراعا! أرأيت أنّ حذف التاء يُشير إلى معنىً لا غنىً عنه مما يجعل حذفَها أمرا لا بدّ منه؛ مما يجعل حذفها «وجوبيًا»؟ وإن «سراعا» يناسبها السرعة فى تشقق الأرض.

بقى أن أقول عن كلمة (أَبَيَّنُها) التى حذفت منها تاء الفعل أنّى وجدتها فى (لسان العرب) (وقد أورد بيت النابغة)على الصورة التى قرأها عليها أستاذُنا. ولكنّ ذلك ليس خطأً من ابن بمنظور.. صاحب اللِّسان- غالبا. وإنما هو خطأ ممن (أعدّ وصنّف) (اللسان) فى العصر الحاضر وهو الأستاذ يوسف خيّاط أو هو خطأ من الطابع.

– يبقى أن أشير إلى أن (سَلْ ما بدا لك) وإن كانت سهلة .. فإنها لا تُفَضَّلُ دائما على اللفظ الكامل، وهو (اسألْ ما بدالك) لأن الكلمة أو العبارة تصحّ فى موقعها المناسب ولا تصحّ فى غيره، والله المنّان وهو القويّ المُستعان.

انتهى القسم الثالث، بعون الله تعالى وكرمه.